

نجیب محفوظ



الاس

مطبعة خان بكية مله

لا ويلي

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للأدب ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيلا

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السطار وشركاه

عيد النيل

لاحت في الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس ، المنطوى في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين . أضناها التعب طوال الليل .

وإنه لقي تطلعه إذ عثر بصره بالشعري اليمانية ، يتألق نورها في كبد السماء ، فتهلل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى ، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الرب سوتيس في أفق السماء ، تحمل إلى الوادى بشرى فيضان النيل المعبود ، وتسير بين يدي رحمته . وأيقظ صوته الجميل النيام . فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم في السماء .. حتى قرت أعينهم على النجم المعبود ، فرددوا ترتيلة الكاهن ، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا ، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة . وردد جو مصر الهادئ صوت كاهن الرب سوتيس ، وأذاع البشرى إلى الجنوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس . فحزموا أمتعتهم ، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو ، يولون وجوههم شطر أبو العاصمة ، فنهبت العجلات الوادى ، ومخرت السفن عباب الماء ..

كانت أبو عاصمة مصر ، يقوم بنيانها الشاوخ على دعائم من الصوان ، تؤلف بينها الكشبان الرملية ، وقد غشاها النيل بطبقات من طميه الساحر ، بثت فيها الخصب والخير العميم ، وأنبئت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم ، وكست سطحها البقول والخضروات والبرسيم ، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان تجري من تحتها الأنهار ، وترعاها القطعان ، يطير في سمائها الحمام والطير ،

ويضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار ، وتتجاوب في جوها أغاريد البلابل والأطيّار .

فما هي إلا أيام معدودات ، حتى ضاقت أبو وجزيرتاها : بيجة وبيلاق ، بالنازحين ، فامتلأت البيوت بالنازلين ، وازدحمت الميادين بالخيام ، وغصت الطرق بالغادين والرائحين ، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين ، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين ، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون ، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بشبابها المزركشة وسيوفها الطويلة ، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل ، يوفون بالنذر ، ويقدمون القرابين ، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين .. وشاع في جو أبو الرزين فرح راقص ، وطرب حار بهيج ..

. وجاء يوم العيد الموعود ، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا إلى هدف واحد ، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعوني والهضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة ، وناءت الأرض بحملهم ، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض ، فهبطوا إلى السفن ، وأطلقوا الشرع ، وطافوا بهضبة المعبد يشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار ، ويرقصون على توقيع الدفوف .. ووقف الجنود صفين على جانبي الطريق العظيم شاهري الرماح ، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعي للملك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين ، أسر كرى ، وتيتى الأول ، وببى الأول ، ومحتساوف الأول ، وببى الثانى .

وكان الجو يضج بأصوات القوم المختلفة ، فيضج تمييزها كما تضج الأمواج في المحيط المصطخب ، ولا يبقى منها إلا دوى هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة ، تخترق الضوضاء ، وتبلغ الأذان ، يهتف بعضها قائلا : « مجدوا الرب سوتيس الذى بشرنا بالخير » . ويصيح صوت آخر : « مجدوا النيل الرب

المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب » . وبين هذا وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط ، وأنبذة آبو ، داعية إلى السرور والنسيان .. وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا ، تبدو على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملا متعجبا :
— كم من فرعون اطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد هذا اليوم العظيم !.. ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور ، ملء الأبصار والأفئدة !.

فقال آخر :

— نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم ، كما سذهب جميعا .. انظر إلى هذا المكان الذى أشغل .. كم من البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة ، ويجدد الآمال والأفراح التى تتحقق فى صدورنا الآن .. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم ؟

— إننا أكثر من أن يذكرونا مذكر .. ألا ليت الموت لم يكن ..
— وهل كان يمكن أن يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت ؟. إن الموت طبيعى كالحياة .. وما قيمة الخلود مادما نشبع بعد الجوع ، ونشيخ بعد الشباب ، ونسأم بعد المسرة ؟..

— فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس ؟..

— انتظر ستعلم ذلك بعد حين ..

وقال آخر باهتمام :

— هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون .

فقال له صاحبه :

— أما أنا فقد رأيته يوم التنويع العظيم منذ أشهر فى نفس المكان .

— انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد .

— سترى أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول .

— ما أجمل هذا .

— أجل .. أجل .. إن فرعون شاب جميل ، لا نظير له في طوله الفارع ،
وحسنه الجاهر ..

وتساءل أحد المتحدثين قائلاً :

— ترى ماذا يخلف حكمه ؟ .. أمسلات ومعابد ، أم ذكريات غزو في
الشمال والجنوب ؟

— إن صدق حدسى فهى الثانية ..

— وله ؟

— إنه شاب عظيم البأس .

فهب الآخر رأسه بحذر وقال :

— يقال إن شبابه من نوع جامع ، وإن جلالته ذو أهواء عنيفة ، يغرم

بالحب ، ويهوى الإسراف والبذخ ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة ..

فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلاً :

— وهل في ذاك ما يدعو إلى العجب ؟. ما أكثر المصريين الذين يغرمون

بالحب ويهونون الإسراف والبذخ .. فما بالك بفرعون .

— صه .. صه .. أنت لا تدري من الأمر شيئاً ، ألم تعلم بأنه اصطدم برجال

الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش ؟. إنه يريد المال لينفقه في تشييد

القصور ، وغرس البساتين ، والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملاً .

لقد منحهم آباء الملك نفوذاً وثراءً ، والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع .

— حقا إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام .

— أجل .. ولا تنس أن خنوم حتب ، رئيس الوزراء والكاهن الأكبر ،

رجل حديدى الإرادة ، شديد المراس . وهناك أيضاً كاهن منف ، تلك المدينة

المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة .

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة ، وقال :

— إذا فلندع الأرباب جميعا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأى
السديد .

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق :
— آمين .. آمين .

ولاحث من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل ، فلكز صاحبه بمرفقه قائلا :
— انظر أيها الصديق إلى النهر .. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من
جزيرة بيجة ، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرقى ؟ ..
فعطف صاحبه رأسه نحو النهر ، فرأى سفينة عجيبة ، لا بالكبيرة ولا
بالصغيرة ، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء ، تبدو
مقصورتها على البعد متعالية ، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها ، ولاح في
أعلى صاريها شراع متموج عظيم ، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة
تنبعث من مئات الأيدي .. فاستولت الحيرة على الرجل ، وقال :
— عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة ..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب ، فحدجهما بنظرة إنكار ، وقال لهما :
— أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان .
فضحك الرجلان معا . وقال ثانيهما :

— صدقت ياسيدى المحترم ، فنحن من طيبة ، واثنان من الآلاف التى ناداها
العيد المجيد فلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان .. هل تكون هذه السفينة
الجميلة لكبير من رجالكم البارزين ؟ ..

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، وقال وهو يشير لهما بأصبعه مخذرا :
— طبما نفسا أيها السيدان الكريمان ، ليست هذه السفينة لرجل من
رجالنا ، ولكنها امرأة .. أجل هى سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع
أهل أبو ، وجزيرتيها بيجة وبيلاق ..
— ومن عسى أن تكون هذه الحسناء ؟ ..

— رادوبيس .. رادوبيس الفاتنة ، ملكة النفوس والأهواء جميعا .
وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة ، واستدرك :
— وهى تقيم هناك فى قصرها الأبيض الساحر .. هدف العشاق والمعجبين ،
حيث يستبقون إلى نيل عطفها ، واستدرا رحمتها .. وعسى أن يسعفكم الحظ
برؤيتها ، صانت الأرباب قلوبكما عن التلف ..
واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة أخرى ، وقد
بدا على الوجوه الاهتمام الشديد . وكانت السفينة تدنو من الشاطئ ، رويدا
رويدا ، والزوارق توسع لها طريقها على عجل ، وكلما عبرت ذراعا اختفت
شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل ، ومضى يغيب عن الأنصار
مقدمها ، ثم مقصورتها ، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى
صاريها وقمة شراعها المتموج ، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس ..
ومضت فترة وجيزة ، ثم رأت أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون
فى البحر المتلاطم طريقا ، يسير فى أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف
هودجا جميلا فاخرا ، لا يحوزه إلا الأمراء والنبلاء ، جلست فيه عادة حسناء ،
تستند فى طرأة إلى وسادة ، وتتكى على ثمرقة ، بساعد بض ، وتمسك فى ينها
بمروحة من ريش النعام ، تلوح فى عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حاملة ، تصوبها إلى
الأفق البعيد فى كبرياء سامية ، تفتح الخلق أجمعين .
وكان الركب الصغير يسير على مهل ، ترمقه العيون من كل صوب ، حتى
بلغ الصف الأول من المشاهدين ، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلا بجيد
كالغزال ، ونثرت من فمها الوردى كلمات تاقت نفوس إلى سماعها : فتوقف
العبيد عن السير ، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة إلى
جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت تنتظر الموكب
الفرعونى الذى لا شك جاءت لمشاهدته .
وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها

الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع ،
ويهبط على كتفها في هالة من الليل كأنه تاج إلهى ، ينبج في وسطه وجه مشرق
مستدير ، عانقت فيه أشعة خدين كالورد الينع ، وفما رقيقا مفترأ كأنه زهرة
من الياسمين في الشمس في خاتم من القرنفل ، وعينين دعجاوين صافيتين
ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه ، فما رنى وجه
قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا .

وقد فتن الناس منظرها كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ، فصوبت إليها
من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت في طريقها بصوان لأذابته . ورمقتها
أعين النساء شررا ومقتا ، وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم
إلى فم .

— يا لها من امرأة فاتنة ..

— رادوبيس .. يسمونها ربة الجزيرة !.

— هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

— هو اليأس لمن يرى .

— صدقت ، فما وقعت عليها عيناى حتى قامت في نفسى ثورة جامحة ،

ونؤت بأعباء ظلم فادح ، وأحسست بتمرد شيطانى ، وصدت نفسى عما بين

يدى ، وغلبنى على أمرى الخذلان والخزى الأبدى .

— هذا أمر محزن .. لكأنى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .

— هى شر وييل !.

— نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر .

— ألا رحمة للعاشقين ..

— ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة ؟.

— حقا ؟..

— إن حبها فرض على علية القوم ، كأنه واجب وطنى .

- لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
— وأثته بآيات منف وطيبة آنى حاكم جزيرة بيعة .
— مرحى .. مرحى ..
— وصنع تماثيله ، ونحت جدرانها ، المثال النابغة هنفر .
— نعم ، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو ، رئيس الحرس الفرعوى .
— إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى تستخلصه لنفسها ؟ .
— سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية ..
— لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .
— من أدراك ؟ .. عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .
— كلا .. إن جمالها هو القوة الجبارة .. وما حاجة القوة إلى الحب ؟ .
— انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية .. إنها لم تذق الحب بعد .
وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث ، فضاق صدرها .
وقالت بجفاء :
— ما هى إلا راقصة .. تربت فى بؤر الفساد والجحون . ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن المساحيق ، فتبدت فى هذا المظهر الخلاب الكاذب .
فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :
— معاذ الرب يا سيدتى ، ألم تعلمى بعد أن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثراء ؟ .. وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان ؟ .
— بخ .. بخ .. من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهى تنفق عمرها فى إغواء الرجال ؟
— قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين ، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعرق الناس فهما للحكمة ، وأدراهم

بالسياسة وأذوقهم للفن .

وسأل سائل :

— كم عمرها ؟ ..

— يقولون إنها بنت ثلاثين .

— لا يمكن أن تتجاوز الخامسة والعشرين .

— ليكون عمرها ما تشاء ، فهذا الحسن يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه

الذبول أبدا ..

وعاد السائل يسأل باهتمام :

— ما منشؤها ، وما أصلها ؟ .

— علم هذا عند الأرباب .. وكأني بها وجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض

بنجيزة بيجة ! .

* * *

وشقت الصفوف المتراسة بغتة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاء ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشيبين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتان .. وصاح الذين رأوها :

— ضام .. الساحرة ضام ..

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الإطلاع على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها الخارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهمك بها . والتقت الساحرة في طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان في الحقيقة ثملا يترشح في سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائميتين ، وسأله بصوتها

الأجش :

— كم عمرك يا غلام ؟

فأجابها ، وهو لا يعى ما يقول :

— اثنتا عشرة كأسا ..

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التي نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذى لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر وسألها بقحة :

— ماذا ينتظرنى من الحادثات يا امرأة ؟

فنظرت إليه مليا ، وهى مغيظة محنقة ، ثم قالت له :

— أبشر .. ستخونك امرأتك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبتة وهى تبتسم ابتسامة كريمة :

— أيتها السيدة المحروسة بالعناية .! هل أقرأ لك الطالع ؟.

ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة ، فصرخت العجوز :

— مولاتى !

وانتهت إليها رادويس فيما يشبه الذعر ، ثم عطفت عنها رأسها سريعا وقد لمسها الغضب ، وقالت لها العجوز :

— صدقنى ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك .! فتقدم منها أحد العبيد ، وحال بينها وبين الهودج . وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القرييين ، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء ، ووضع على أثره الجند المصطفون على جانبى الطريق الأبواق فى أفواههم ، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا ، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه ، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل ، فنسى الجميع ما كانوا فيه

وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرّبة ، وحواس مرهفة .
ومضت دقائق طويلة ثم بدأت طلائع الجيش تسير صفوفًا متراسة على أنغام
الموسيقى الحربية تتقدمها حامية يبلاق بعددها المتنوعة ، تسير وراء علمها المتوج
بصورة الباز ، فكانت الجنود تقابل في كل مكان بالهتاف والتصفيق ..
وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملي الرماح والتروس ، تتأثر موسيقاها ،
وعلمها المزدان بصورة الرب حورس ، وقد استقامت الرماح في صورة هندسية
دقيقة ، فرسمت في الهواء خطوطًا متوازية طولًا وعرضًا .
وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسي والسهام . واستغرق مسيرها فترة
طويلة من الزمن ، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش .
ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل ، ولاحت للأنظار فرقة
العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم ، يجر
العجلة جوادان مطهمان ، ويقوم على ظهرها فارسان ، سائق مزود بالسيف
والمزراق ، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد ، فذكر المشاهدون
لمرآها غزور النوبة وطور سيناء ، وخالوا أنهم يرونها تنتشر في السهول والوديان
كالنسور المنقضة ، والعدو يتشتت أمامها ، وقد أذهله الرعب ، وأحاط به
الهلاك ، فاشتعل الحماس في عروقهم نارا ، وشق هتافهم السماوات .
وبدا للناظرين الموكب الفرعوني المهيّب ، تتقدمه العجلة الفرعونية ،
وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسي خماسي ، تحمل الأمراء والوزراء وكبار
رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم ، واختتم
الموكب بذيل من الحرس الفرعوني على رأسه القائد طاهو ..
ووقف فرعون في عجلته منتصب القامة ، مهيب الطلعة كأنه تمثال من
الجرانيت لا يميل يمينه ولا يسره ، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى
الخلق جميعا ، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب .
وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج ، ويقبض بيد على السوط الملكي ،

وبالأخرى على العصا المعقوفة ، وقد ارتدى فوق لباسه الملكى كساء من جلد الثمر احتفالاً بالعيد الدينى .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة ، فتعالى الهتاف ، فكاد لشدته أن يفرع الطير المحلق فى السماء . وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائية ، وأضاء وجهها بنور بهيج ، وصفقت يداها الرخصتان ..

وأفلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل : « ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب » ، فردد هتافه عشرات الأصوات ، وأحدث هتافه انزعاجا وأهباج ضجة شديدة ، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب ، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب !..

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا ، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر ، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد ، فتوقفت العجلات جميعا ، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبى ، فترجل الملك عليها . ونفخ فى الصور ، فأدى الجنود التحية العسكرية ، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود ، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تودة وجلال ، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام . ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا . ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره ، وأخفى عينيه بيديه ، وقال فى صوت خافت :

— يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيد القطرين ، ابن رع ورب المشرقين .

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة ، فقبلها الكاهن فى إجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المجاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب ، وطافوا بالمذبح ، وكان الكهنة

يحرقون البخور ، فينتشر أريجهم في جو المعبد ، وتنفسه الرعوس المنعكسة إجلالا وقنوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى ، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت في رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت
نفسى . وقدمت القربان زلفى إليك ، فامنن بالخير
على أرض هذا الوادى الطيب ، وأهله الآمنين .

وردت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر ، يفيض بالإيمان والتقوى ،
رافعين رعوسهم إلى السماء ، باسطين أيديهم فى الهواء . وردد الحاضرون جميعا
الدعاء ، وسرى الصوت إلى خارج المعبد ، فسارع الناس فى ترديده ، وماهى
إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته
كاهن المعبد ، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى الصحنون الثلاثة
المتوازية ، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب ، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود
بأصوات متهدجة ، تختلج بخفقات القلوب ، فيرن صداها فى جو المكان القائم
المهيّب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد ، واقترب من باب قدس
الأقداس ، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا ، وركع
ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى
السفينة الإلهية ، وأغلق الباب ، وكان المكان واسعا ، شاهق السقف ، شديد
الظلمة ، قوى الأثر ، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت
الشموع على مناضد من الذهب الوهاج . ونفذت هيئة المكان إلى قلب الملك
الكبير ، فوهنت حواسه ، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس وأزاحه بيده ،
وأحنى ظهره الذى لا ينحنى أبدا ، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال .
وكان ما يزال مهيبا ، ولكن غابت عن وجهه أى مجد الدنيا وكبريائها ،
واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى .. وصلى فرعون صلاة

طويلة ، واستغرق في العبادة ناسيا مجده التالد وعظمته الدنيوية .
ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى ، وقام واقفا وأسدل الستار
الكريم ، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب ، حتى تنفس هواء البهو
الخارجي ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء ، وساروا وراءه إلى بهو المذبح ، وتبعوه إلى
خارج المعبد ، وعرجوا جميعا إلى حافة الهضبة المطلّة على النيل . وراهم الأهلون
المتجمعون فوق أسطح السفن ، فتعالت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام
والغصون .

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين يديه ورقة طويلة
من أوراق البردى ، وتلا بصوت قوى النبرات :

« السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضيه الوادى مبشرا بالحياة والسعادة .
إنك لتسكن الغياهب أشهرا ، فإذا أصحخت إلى توسلات عبادك ، ولان قلبك
الكبير رحمة بهم ، خرجت من الظلمات إلى النور ، وانسبت في بطن الوادى
زائرا ، فتبعث في الأرض الحياة ، وسرعان ما تهتز النباتات طربا ، وتفيض
الصحراء تحت بساط سندسى ، وتزدهر البساتين ، وتغنى المغارس ، وتصيح
الطير ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ، ويطعم الجائع ، ويروى
الصدىان ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفح أرض مصر بالسعادة والمجد .. تعاليت
والمجد لك .. تعاليت والمجد لك .. »

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار والناى ، وعلى توقيع
الدفوف فى ألحان عذبة وأنغام شجية .

ولما أن ضاعت الأنغام فى تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير ناى من فرعون
وأسلم إليه قرساطا مختوما من البردى ، يشتمل على دعاء النيل المعبود ، فأخذه
الملك ورفعاه إلى جبينه ، ثم تركه يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى
صخب صوب الشمال ..

وهبط فرعون أدراج الهضبة ، وركب عجلته ، ورجع الموكب كما أتى تحف
به العظمة ويحوطه المجد ، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين ، وقد
أهاجهم الحماس ، وأسكرتهم نشوة الطرب .

الصندل

عاد الموكب الملكى إلى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، إلى أن خلا إلى نفسه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللأى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شديد الغضب ، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها ، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق ، فيظنه إنذارا جريئا موجهها إلى رغباته ، فيشتد به الغضب وينذر بالويل والثبور ..

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن بسرعات لا يلوين على شيء .. ولبثت الملكة جالسة هنيئة ، ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت فى جلال ، ودنت منه ، ثم شبت على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت :
— أغاضب أيضا يا مولاي ؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة فى دمائه ، فارتاح إلى سؤاها وقال بشدة :

— كما ترين يا نيتوقريس !

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن واجبها الأول هو

أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه ، فقالت بهدوء وهى تبسم إليه :
— الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال :
— أتوصيننى بالحلم أيتها الملكة ؟ إنه لثوب زائف يتقنع به الضعفاء .
فقالت الملكة فى تألم ظاهر ..

— مولاي .. لماذا تضيق بالفضائل ذرعا ؟

— أحقا أنا فرعون ؟ .. وهل حقا أتمتع بشبابى وقوتي ؟ .. فكيف إذا أريد ،
ولا أستطيع نيل ما أريد ؟ .. كيف تنظر عيناى إلى أراضى مملكتى فيتصدى لى
عبد ويقول : لن يكون هذا لك ؟ .

فوضعت يدها على ذراعه ، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان ، ولكنه تخلص
منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا . غاضبا ساخطا ، فقالت بلهجة تنم على
الأسف العميق :

— لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو .. واذكر دائما أن الكهنة رعاياك
المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت
صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يا مولاي أن تستردها ، فمن الطبيعى أن
يقلقوا ..

قال الملك الشاب بحدة :

— أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف فى
سبيل رغباتى إلا أن نصف أراضى المملكة فى أيدى أولئك الكهنة .. أيجوز أن
تعذبنى رغباتى كالفقراء ؟ . ألا سحقا لهذه الحكمة الفارغة ، أو تعلمين ماذا
حدث اليوم ؟ .. لقد هتف نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خوم
حتب .. أرأيت أيتها الملكة ؟ .. إنهم يتحدثون فرعون عينا لعين !

فاستولت الدهشة على الملكة ، واصفر وجهها الوديع ، وتمتمت بكلمات
غير مسموعة ، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة :

— ماذا دهاك أيتها الملكة ؟

أحست بلا شك بانزعاج واستياء ، ولولا أن الملك غاضب إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها تسلطت على انفعالاتها بإرادة من حديد ، وقالت بهدوء :

— دع هذا الحديث إلى وقت آخر ، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب ، وينبغي أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة .. فنظر فرعون إليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :

— إني أعرف ما أريد ، وما ينبغي أن أفعل .

وفي الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته في البهو الرسمي العظيم ، واستمع إلى خطب الكهنة ، وآراء حكام الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك « لم يكن راضيا » ، وحين تفرق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير يسير ، وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه ، لعلهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحراس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة ، ودار في الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالثأر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجله في انتظاره : سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، ورأسه الأشيب ، وطاهو بجسمه القوى الفولاذى الذى ترى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمعا الهتاف الجرىء

الذى عد في جميع الدوائر تحديا لسلطة فرعون ، وكانا يتوقعان له رجعا شديدا في نفس الملك الشاب ، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فخفق قلباهما ، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك ، لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الأراضى بمتهى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه ، فيصدر أمره بتنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا ..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاها ، يرجوان ، ويكابدان قلقا أليما ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبى الهول . وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما ، وكأنه رغب في أن يمدلهما حبل الوسائس ، فجلس على أريكة في هدوء ، وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقال :

— يحق لي اليوم أن أغضب وأن أتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى ، ورن في أذنيهما الهتاف الجرىء مرة أخرى . فرفع سوفخاتب يديه تألما وإشفاقا ، وقال بصوت متهدج :

— تعالى مولاي عن دواعى الألم والغضب !

وقال طاهو بقوة :

— لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينثلم ، ورجال يفقدونه بالأرواح ، حقا أن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم ، يتنكبون سبيل الرشاد ، ويركبون رعوسهم ، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها ..

فأحنى الملك رأسه ناظرا إلى ما تحت قدميه ، وقال :

— إني أتساءل ، هل قوبل أحد من آبائي وأجدادى طوال عهد حكمة بمثل ما

قوبلت به اليوم من هتاف ، وما مضى على جلوسى سوى بضعة أشهر ؟ ..

فالتفت عينا طاهو بنور خاطف مخيف ، وقال بيقين :

— القوة يا مولاي .. القوة يا مولاي .. كان أجدادك المقدسون أقوياء ،

يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال ، وسيف كالقضاء ، كن مثلهم يا مولاي ، لا تتردد ولا تركز إلى الحلم ، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة ، تذهل الجبار عن نفسه ، وتختنق في صدره أوهى الأمل .
ولم يرق هذا الكلام في عيني الشيخ الحكيم سوفخاتب ، وذعر من حماس قائله ، وأشفق من عواقبه ، فقال :

— مولاي .. إن الكهنة منبثون في أقطار المملكة كالدم في الجسم ، منهم : الولاة والقضاة والكتاب والمربون ، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم ، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعوني وحاميه بلاق ، فالضربة القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة ..
ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة ، فقال :

— وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم ؟ .. أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا ، ونرد في عينيه إلى الهوان ؟

— ليس الكهنة بأعداء لفرعون ، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو ، فالكهنة طائفة مخلصنة أمينة . وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال ، وأقسم أني ما يئست يوما من إيجاد الحل الموفق الذي يحقق رغبة مولاي ، ويحفظ للكهنة حقوقهم .

وكان الملك يستمع إليهما في هدوء ، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة ، فلما أتم سوفخاتب كلامه ، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين :
— أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان ، فقد أطلقت سهمي .

واستولت الدهشة على الرجلين ، ونظرا إلى الملك في إشفاق وأمل وخوف . وكان طاهو أدنى إلى الأمل ، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعض على شفتيه ، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة . وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفي :

— تعلمان أني استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعا ، ولما أن خلا

المكان ابتدرته قائلاً : إن الهتاف باسمه تجت سمعى وبصرى عمل حقير خئون ، وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين ، فرأيته يضطرب ويبهت ، ويحنى رأسه الكبير على صدره الضيق ، وفتح فمه ليتكلم ، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد ..

وقطب الملك جبينه ، وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلاً بعنف :
— ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدى ، وصارحته بكلام صارم ، مؤكداً له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك الهتاف يردنى عن رأى اعتزمته ، ثم أخبرته بأن نيتى انتهت إلى ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج ، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والنذور ..
وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك ، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون ، منكفئ الوجه ، يعانى مرارة الخيبة ؛ وأما طاهو فكان متهللاً فرحاً ، كأنه يستمع إلى لحن جميل ، يتغنى بمجده وعظمته ، واستدرك الملك قائلاً :

— لا شك أن قرارى أذهل خنوم حتب ، وأخرجه عن طوره ، فبدا عليه الجزع ، توسل إلى قائلاً : إن أراضى المعابد هى أراضى الأرباب ، وإن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب والفقراء ، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية ، وحاول أن يفيض ، ولكنى أوقفته بإشارة من يدى ، وقلت له : إن هذه هى إرادتى ، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء ، وأذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحاً :

— باركتك الأرباب جميعاً يا مولاي !

فابتسم الملك ارتياحاً ، ولاحت منه نظرة إلى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال :

— أنت رجل مخلص يا سوفخاتب ، ومشير نصوح .. فلا يحزنك أن

نحولف رأيك .

فقال الراجل :

— لست يا مولاي من قوم مغرورين ، يغضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا عن كرامتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان أنذر به ، ليعرف من لا يعرف قدره .. أعوذ بالرب من شر الغرور ، فما يدفعني إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزنني حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسي ، وما أتمنى على الرب من شيء إلا أن يكذب رأبي ، ليطمئن قلبي ..
وكان فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

— لقد نلت بغيتي ، ولن ينالوا شيئا مني ، فمصر تعبد فرعون ، ولا ترضى عنه بدلا ..

فأمن الرجلان على قول مولاهاما بإخلاص ، ولكن كان سوفخاتب مضطربا ، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذي أصدره فرعون ، ويذكر في ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون في آبو ، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأي ، وتباث الشكوى ، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر والحزن ، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول .. ولكنه لم يبين عن آرائه ، لأنه وجد الملك فرحا راضيا ضاحك الثغر ، فأشفق من تعكير صفوه ، وبسط صفحة وجهه ، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

— لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أبي ، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .
وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبية ، وصبين الخمر ، وقدمن كئوسا مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين ، فشربوا في صفاء وهناء ، وعلوا في نشوة ، وجعل سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز

حواسه فى رحيق مريوط ، ويشارك الملك والقائد سعادتهما ، وكانوا جلوسا صامتين تتبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدة الأغاريد ، وتنبت الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس .. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمنا غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهن من أحلامهم بعنف ، إذ سقط شيء فى حجر الملك من عل ، فانتفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط الشيء عند قدميه ، وإذا به صندل ذهبى ، ونظروا إلى أعلى دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق فى سماء الحديقة فوق رءوسهم ويبحث فى الفضاء صرصرة مخيفة ، ويصلبهم نظرات ملتهبة من عينين متقدتين ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة .. وعادوا بالنظر إلى الصندل ، والتقطه الملك بيده ، وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة ، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتباب .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلا :

— هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أئمنه !

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

— ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلا :

— لا يوجد فى حديقتي شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا .

وقال سوفخاتب :

— يعتقد العامة يا مولاي أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه يخطف من العذارى

من تهوى إليها نفسه ، ويطير بها إلى قمم الجبال ، فلعل هذا النسر عاشق هبط

منفب وابتاع الصندل لحبيته ، ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه ، وسقط عند

قدمي مولاي .

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعلا ، ويقول :

— ترى كيف خطفه ؟.. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء ..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

— أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي ، خلعتة مع ثيابها على شاطئ بركة ، وتعدت تستحم ، فجاء النسر وخطفه .

— ورمى به إلى حجرى .. يا للعجب ، لكأنى به يعلم بحبى للحسان !..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :

— أسعدت الآلهة أيامك يا مولاي .

وتبدت الأحلام فى عيني الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان جبينه ، وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر إلى الصندوق لا تفارقه عيناه ، ويسائل نفسه ترى من صاحبتة ؟ وما صورتها ؟ وهل هى جميلة كصندلها ؟ وكيف لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك وما شأن الأقدار التى نصبتة هدفاله ؟. وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه ، فقال وهو يشير إليها :

— ما أجمل هذه الصورة .. إنه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية على يده المبسوطة .

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه. الشديد فالتفت أعينهما بنور خاطف ، وتطلعا إلى الصندوق باهتمام عظيم ، وقال سوفخاتب :

— هل يتنازل مولاي عن الصندوق لحظة ؟

فأعطاه ، ونظر إليه كبير الحجاب ، كما نظر إليه طاهو ، ثم رده الرجل إلى الملك وهو يقول :

— صدق حدسى يا مولاي .. هذا صندل رادوييس غانية بيعة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلا :

— رادوييس .. يا له من اسم جميل .. من عسى أن تكون صاحبتة ؟!..

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

— هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعا .

فابتسم فرعون وقال :

— ألسنا من أهل الجنوب ؟. حقا أن الملوك قد تخرق أعينها سجف الأفق

القصى ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .

واشتد القلق بطاهو ، فقال وقد امتقع لونه :

— إنها امرأة يا مولاي قد طرق بابها رجال أبو وبيجة وبلاق .

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ، فقال وهو يبتسم

ابتسامة غامضة مأكرة :

— على أية حال هي صورة أنثوية يا مولاي ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها

وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :

— وحق الرب سوتيس إنكما لأخبر أهل الجنوب بها .

فقال سوفخاتب بهدوء :

— إن بهو استقبلها يا مولاي ملتقى أهل البرأى والفن والسياسة .

— حقا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ، هل هي أجمل

من رأيت ؟

فقال سوفخاتب باطمئنان :

— هي الجمال عينه يا مولاي ، هي فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم . لقد

صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال يوما : إنه من أخطر

الأمور في حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوييس .

وتهد طاهو يائسا ، وحدث كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ، ثم

قال :

— إن جمالها يا مولاي جمال شيطاني رخيص ، لا تضمن به على طالب !

فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

— كلا كما يغرينى وصفه .

فقال سوفخاتب :

— ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يا مولاي .
ونزع خيال الملك به إلى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، أضفى عليه ما سمعه
نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام . فتساءل وكأنه يحدث نفسه :
— ترى أحسن النسر فى اختيارنا هدفا له أم أساء ؟
واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال فى
حيرة :

— ما هى إلا مصادفة يا مولاي . وما يؤسفنى إلا أن أرى هذا الصندوق
الملوث بين يدى مولاي المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :
— مصادفة ؟ .. إن هذه الكلمة يا مولاي مهضومة الحق ، يظن بها التخبیط
والعمى ، ومع هذا فهى المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ،
فلم يبق للآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق ، كلا يا مولاي ، إن كل
حادثة فى هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق
الآلهة الحادثات — جلت أو تفهت — عبثا أو لهما .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنونى كاد أن يجرف هدهوءه فى
حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم على اللوم والتعنيف :
— أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاي ، فى هذه الساعة
الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام ؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

— إن الحياة جد وهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر
فى أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفوه لهوه بأمر جده . فمن أدراك أيها
القائد ، فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندوق

على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً :

— أداثما على اختلاف أيها الرجلان ، كما تشاءان . ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغرباً بالهوى ، وفي سوفخاتب الشيخ زاجراً عنه ، وعلى أية حال لا مندوحة لي من الميل مع رأى سوفخاتب في الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو في السياسة .

وقام الملك واقفاً ، فقام الرجلان ، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهي تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربي ، وقال وهو يهم بالمسير :

— أمامنا ليلة عمل شاقة . فإلى الغد ، ولسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل في يده ، فانحنى الرجلان في إجلال .

ووجدنا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوق كل منهما بإزاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض وعضلاته الفولاذية ، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج في صدر صاحبه ، فيبتسم سوفخاتب ، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم ، فقال :

— غدرت بي أيها الصديق سوفخاتب ، بعد أن لم تطق منازلتي وجهها لوجه ..

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكاراً ، وقال :

— يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد ، ما لي أنا والحب ؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان ، وأن حفيدى سنب طالب في جامعة أون ؟

— ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق ، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم .. ألم يمل قلبك الفتى يوماً إلى رادوييس ؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفاً لم تظفر به أنت ؟

- فرفع الشيخ يديه يستعيز من كلام القائد ، وقال :
- إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن ، والحق أنه إذا كان قلبي مال إلى هذه الغانية يوما ، فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع !
- أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها إكراما لي ؟
- فبدت الدهشة على سوفخاتب ، وقال باهتمام وأسف صادق :
- أحقا أنك تجد في الأمر جدا ؟.. أم أنك ضقت بدعابتي ذرعا ؟..
- فقال طاهو بسرعة :
- لا هذا ولا ذاك أيها المعظم ، ولكن يسوءني فقط أن نختلف دائما .
- فابتسم كبير الحجاب ، وقال بهدوئه الطبيعي :
- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش !

قصر بيجة

غاب الموكب الفرعوني من الأنظار ، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة ،
فاندفع الناس من جانبي الطريق ، فتلاطمت أمواجهم ، واختلطت أنفاسهم ،
كأنهم بحر موسى الذي انشق له طوعا ، وانقض على أعدائه كاسرا . فأمرت
رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة . وكانت نشوة الحماس التي انبعثت في
قلها لدى ظهور فرعون ما تزال تلهب في قلبها نارا وتندفع إلى أطرافها دما حارا .
وكانت صورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض ، ونظراته المتعالية ، وقده الرشيق ،
وعضلاته المفتولة .

وكانت رآته قبل ذلك في يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل ، وكان يقف في
عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال ، مرسلا بناظريه إلى الأفق
البعيد ، وقد تمت يوم ذاك كما تمت اليوم لو عطف إليها عينيه .
ترى لماذا ؟ .. لأنها تطمع في أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم ؟ أم لأنها
تود في أعماقها لو تراه في هيئة البشر بعد أن رآته في قداسة الأرباب المعبودة ؟
كيف السبيل إلى فهم هذا التمني ؟ .. على أنه مهما كانت حقيقته ، فقد تمت
صادقة ، وتمت مخلصه مشوقة .

لبشت الغانية مستغرقة في غمرات أحلامها ، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق
المزدحم الذي يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس ، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف
من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها ، بنهم وشراهة . وصعد بها إلى السفينة
ونزلت من الهودج في المقصورة ، واطمأنت إلى عرشها الصغير ، وهي في شبه
غيبوبة تسمع ولا تعي ، وتنظر ولا ترى .. وانسابت بها تشق وجه النيل
الرزين ، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض ، عروس جزيرة بيجة .

وكان القصر يرى عن بعد في نهاية الحديقة اليانعة التى تنتهى معارجها إلى سيف النيل ، تحوط به أشجار الجميز ، ويحنو عليه النخيل ، كأنه زهرة بيضاء نبتت في أحضان تلك الجنة الوارفة . فهبطت أدراج السفينة ، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة ، وصعدت سلما من المرمر المصقول ، يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيرى نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة ، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعى ، نحته هنفر ، وأفنى فيه دهرًا جميلا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة على عرشها الجميل الذى تستقبل عليه المقربين ، ويكشف في روعة فنية رائعة عن جمال الوجه ، وتكعب الثديين ، ورشاقة القدمين . ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها ، فظلت عليه سقفا من الأزهار والأوراق الخضراء ، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب ، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة ، تنتهى ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبي ، وذات الشمال إلى سورها الشمالى . وكان هذا الممر ينتهى إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراس من عمد رخامية ، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز ، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال ، وانتشرت في جنباتها المترامية التماثيل والمسلات .

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الأوز والبط وتغنى في جوها الأطيّار ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل :

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة ، فصارت أمام الحجرة الصيفية ، ووجدت في استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها إجلالا ، ثم وقفن ينتظرن أوامرها ، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلة تستريح .. ولم يطل بها المقام

فانتفضت واقفة ، وقالت لجواربها :

— كم ضايقتني أنفاس القوم الحارة .. وكم أرهقني الحر .. اخلعن ثيابي ،
فقد تفتت إلى مياه البركة الباردة .

فدنت الجارية الأولى من سيدتها ، ورفعت بخفة خمارها الموشى بالذهب
نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية ، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر
عما فوق النهدين وما تحت الركبتين ، ثم تبعتهما جارتان فسحبتا بيدين رقيقتين
القميص السعيد ، وروعتا الدنيا بجسد طليق ، خلقتة الآلهة جميعا ، وادعاه كل
لقدرته وفنه !

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم ، فانساب على
جسدها ، وغشاه من الجيد إلى الرسفين ، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها
الذهبي ووضعت على حافة البركة . ومشت الغانية تتهادى ، وهبطت درجات
البركة المرمرية على مهل ، ومضى الماء يغمر القدمين ، فالساقين ، فالفخذين ، ثم
ألقت بجسمها في الماء الهادي يأخذ منه عطرا ويعطيه برذا وسلاما . واستسلمت
لمداعبة الماء في رخاوة ، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح ، وسبحت طويلا
تارة على بطنها ، وتارة على ظهرها ، وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعير شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواربها ،
فتوقفت عن السباحة ، والتفتت إليهن ، فراعها أن رأت نسرا هائلا يخلق من علو
قريب من شاطئ البركة ، ويرف بجناحيه ، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع ،
وغاصت في الماء تنتفض فزعا ورعا ، وتصبرت بجهد جهيد ، وحبست أنفاسها
طويلا حتى أحست بالاختناق ، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في خوف
وحذر ، ونظرت فيما حولها وهي تخشى ، فلم تر شيئا . فنظرت إلى السماء
فوجدت النسريولى بعيدا يوشك أن يلج باب الأفق ، فسبحت إلى الشاطئ على
عجل ، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة ، ووضعت قدمها في إحدى

زوجى صندلها ، ولكنها لم تجد الأخرى ، وبحث عنها طويلا ثم سألت :
— أين الأخرى ؟

فأجابها الجوارى فى قلق :

— خطفها النسر !

وتبدى الأسف على وجهها ، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لإعلان
سخطها ، فدلقت إلى الحجرة الصيفية ، والجوارى من حولها وبين يديها يجففن
جسدها الغض ، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتشر على أديم عاج .

* * *

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف ، وما أكثرهم فى أيام العيد التى
تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب ، فارتدت أجمل ثيابها ، وازينت بأفخر
حليها ، ثم تركت المرأة إلى بهو الاستقبال ، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم .
وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة ، بناه المعمار هنى ، وجعل صورته
على هيئة بيضاوية ، وشيد جدرانه من الجرانيت كبيوت الأرباب ، وكساه
بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر الناظرين ، وكان سقفه مقببا تزينه الصور
والتهاويل ، وتتدلى منه المصابيح المكففة بالذهب والفضة .

وزخرف الجدران المثال هنفر ، وتنافس العشاق فى تأثيثه بإهداء المقاعد
الوثيرة والدواوين الفاخرة ، والرياش الجميلة . وكان عرش الغانية أبداع هذه
التحف جميعا ، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل ، وقاعدته من
الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت ، وقد أهدها إياها حاكم جزيرة بيجة .
ولم يطل انتظار الغانية ، فدخل عبد من عبيدها ، وأعلن قدوم السيد عانن
تاجر سن الفيل . ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه الفضفاضة ، ويزهو
بشعره المستعار ، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب ، وضعه
على كئيب من كرسى الغانية ، ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد
رادويس ، ولثم أناملها ، فابتسمت له ، وقالت بصوتها الحلو :

— أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك ؟. أهكذا لا نراك إلا كل دهر طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا ، وقال :
— ماذا أصنع يا مولاتي !.. هي حياتي التي اخترتها أو التي فرضتها الأقدار على ، أن أكون أخا سفر ، جواب أرض ، تتقاذفني البلدان ، فأقضي نصف عامي في بلاد النوبة ، ونصفه الثاني ما بين الجنوب والشمال ، أشتري وأبيع ، وأبيع وأشتري ، لا أعرف لحياتي مستقرا !!.

فنظرت إلى الصندوق العاجي وهي لا تزال تبتسم وسألته :
— وما هذا الصندوق الجميل ؟ إخال أنه هدية من هداياك النفيسة !.
— ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه .. هو سن فيل مفترس ، أقسم التاجر النوبي الذي ابتعته منه أن صيده كلفه أربعة من رجاله الأتداء ، فحفظته في مكان أمين ، ولم أعرضه على الطالبين . ولما ألقيت عصا الترحال في تنيس ، دفعت به إلى أيدي صانعيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب ، وطلوه من الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك .. وقلت لنفسي : أخرى بتلك الكأس التي كلفت نفوسا غالية ، أن تهدي إلى من تبذل في سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهي راضية .

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة ، وقالت :
— شكرا لك أيها السيد عانن .. إن هديتك على نفاستها لا تعدل بجمال حديثك !

فطرب أيما طرب ، وورنا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسل ، وقال بصوت خافت :

— ما أجملك .. ما أفنتك .. كلما عدت من سفر طويل أجذك أجمل وأفتن مما تركتك ، وكأني بالزمان ولا عمل له إلا السمو بحسبك الفاتن .
وكانت تصغي إلى إطرء حسننها ، كمن يصغي إلى نغمة معادة ، فطاب لها أن

تتهكم به فسأله :

— كيف حال أبنائك ؟! —

فأحس بشيء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه ، فبدا الكأس نائما على جانبه ، ثم قال وهو يرفع رأسه إليها :
— ما ألدع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى ، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك ! —

فلم تجبه ، وما تزال تبتسم ، ثم دعت للجلوس فجلس قريبا منها . واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين ، منهم من يتردد على قصرها كل مساء ، ومنهم من لا تراه إلا في الأعياد والمناسبات ، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة ، ثم رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقة ، وحنجرته الناثية ، وشعره المفلفل ، وأنفه الأفطس ، وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم . فأعطته يدها ، ولثمها الرجل في حب عميق . وقالت تداعبه :
— أيها الفنان الكسول .

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال :

— لقد انتهيت من عملى فى زمن قصير .

— والحجرة الصيفية ؟

— هى الباقية بلا زخرف ، وإنه ليؤسفنى أن أقول لك بأنى لن أزخرفها بنفسى .

فبدا التساؤل على وجه رادوييس ، فقال الرجل :

— سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة ، لأن أمى مريضة ، وقد بعثت إلى رسولا

يلغنى رغبتها فى رؤيتى ، فلم أر بدا من السفر .

— خففت الأرياب عنها وعنك .

فشكرها هنفر وقال :

— لا تظنى أنى نسيت الحجرة الصيفية ، ففى الغد يأتيك أنبغ تلاميذى
بنامون بن بسار ، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه ، إني أثق به ثقتى بنفسى ،
ولعلك ترحبين به وتشجعينه .

فشكرته على عنايته بها ، ووعدته خيرا .

واطردتيار القادمين ، فجاء المعمارهنى ، وقفاه أنى حاكم الجزيرة ، وتبعهما
بعد حين قليل الشاعر رامون حتب . وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف ،
الذى كان فى يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر . وقد عاد أخيرا إلى أبو
مسقط رأسه ، بعد أن نيف على السبعين من عمره ، وكانت رادوييس لا تفتأ
تداعبه ، فقالت له وهى تستقبله :

— مالى إذا رأيتك أشتى أن أقبلك ؟

فقال الرجل بهدوء :

— لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمة .

* * *

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا ، وباقات من
أزهار اللوتس ، فدهن رعوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب ، وأهدين
إلى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوييس بصوت عال :

— ألم تعلموا بما حدث لى اليوم ؟

فتطلع إليها الجميع بانتباه ، وساد الصمت ، فقالت باسمه :

— نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة ، فهبط نسر بغتة وخطف فردة

صندلى الذهبى ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه ، وقال الشاعر رامون حتب :

— إن رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة !

وقال عانن بحماس :

— أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل .

فقالت رادوبيس آسفة :

— كم كان عزيزا لدى .

فقال هنفر المثل :

— من المحزن حقا أن يضيع شيء تمتع بلمسك أياما وأسابيع ، وما مصيره في النهاية إلا السقوط ، وقد يسقط في حقل ناء فتطؤه قدم ريفية بسيطة !

فقالت رادوبيس بحزن :

— مهما يكن مصيره ، فلن يعود إلى ..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه ، فقال يعزيها :

— على أية حال إن خطف النسر لصندلك فأل حسن ، فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

— وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه من عشاقها ؟ فرد عليه الفيلسوف قائلا ، وهو يحدجه بنظرة ساخرة .

— ينقصها أن تتخلص من بعضهم !

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكئوس الشراب الذهبية ، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفئ الظمأ في الفم ، وتوقد النار في القلوب . وقامت رادوبيس على مهل ، وسارت إلى الصندوق العاجي ، ورفعت الكأس العجيبة ، ومدت بها يديها إلى الساقية وهي تقول :

— لنشرب نخب السيد عائن لهديته الجميلة ، وعودته السالمة .

فشربوا جميعا هنيئا ، وشرب عائن كأسه حتى الثمالة ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت إلى صاحب له وقال :

— أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمى على لسان رادوبيس ؟
فأمن الرجل على قوله ، وتنبه عند ذاك الحاكم أنى إلى وجود السيد عانن ،
وكان يعرفه ، ويعلم بأنه كان فى رحلة فى الجنوب ، فقال له :
— عود سعيد يا عانن ، كيف كانت سفرتك هذه المرة ؟
فأحنى الرجل رأسه احتراماً ، وقال :

— حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل ، لم أتوغل هذه المرة فيما
وراء إقليم الواوايو ، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب .
— وكيف حال صاحب السمو كارفنرو حاكم الجنوب ؟
— الحق أن سموه يلقي متاعب جمة بسبب تمرد قبائل المعصايو ، فهم
يضمرون الكراهية للمصريين ، ويتربصون لهم ، فإذا وقعوا على قافلة هاجموها
بلا رحمة ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا تجارتها ، ولاذوا بالفرار أن تبلغهم القوات
المصرية .

فبدأ الاستياء على وجه الحاكم ، وسأل التاجر باهتمام :

— ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية ؟

— إن سموه لا ينفك يرسل قواته فى أعقابهم ، ولكنهم لا يواجهون القوات
الحرية ، ويفرون فى الصحارى والغابات . فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاد
المؤن . ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل .

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن ، وكانت له خبرة ببلاد
النوبة ، وكان على علم واف بقضية المعصايو ، فسأل التاجر قائلاً :

— لماذا يصر المعصايو دائماً على العصيان !... إن البلاد المستمولة بحكم مصر
تتمتع فى ظلها بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا ، فلماذا
يناصربوننا العداوة ؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة هى التى تغرى
القوم بالانقضاض عليها ، ولكن الحاكم أنى كان متبحراً فى هذه المسائل ، فقال

للفيلسوف :

— الحق يا سيدى الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسية أو دينية .
وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون فى أرض جدباء ، ويهددهم
الجوع فى كل حين ، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من
جوع . فإذا انبرى المصريون لاستثمارها ، هاجمهم ونهبوا قوافلهم .

فقال هوف :

— إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وإنى أذكر يا
سيدى الحاكم أن الوزير أونا — تقدست روحه فى عالم أوزوريس — منى نفسه
يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمددهم بالغذاء فى مقابل أن
يؤمنوا له طرق القوافل .. هى فكرة ثابتة أليس كذلك ؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

— لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل
عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون ..
وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا حلقات ، ومنهم
عانن ، وشتتهم شجون الحديث ، وحاولت كل حلقة أن تجذب رادوبيس إليها ،
ولكن الغانية جذبها اسم خنوم حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء
سير الركب الفرعونى ، فعاودها استيلاء غمرها وقتذاك وأحست بلفحة
غضب ، فدلقت إلى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ، ورامون
حتب ، وقالت بصوت خافت :

— ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب ؟

وكان زوار القصر الأبيض إخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا يعقل ألسنتهم
خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حرية مطلقة ، وطمأنينة كاملة .
وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدى
شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع

الدنيا .

وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى وجه رادوييس

الجميل :

— إنه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل في وادى النيل .

فقال هنفر :

— نعم ولا شك فى أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب فى أول عهده

بالحكم :

وقال هوف بهدوء :

— لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته ، فى حضرة

فرعون !.

فقالت رادوييس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

— ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة .. لماذا أقدموا على ذلك أيها

السيد آنى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

— أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات .. فكثير من العامة يعلم

الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج ، وأن

يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف :

— كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة ، يقطعونهم الأراضى ،

ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المنزرعة ، وتغلغل

نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولا شك أن هناك وجوها من المنافع

أحق بالمال من المعابد ..

فقال هوف :

— يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الإحسان والبر ،

ويصرحون دائما يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

— وما هذه الضرورة ؟

— أن تشتبك المملكة في حرب مثلاً تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلاً ، ثم قالت :

— لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آنى :

— لقد تورطوا في خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم يثنون دعائهم في الأقاليم ،

ويدخلون في روع الفلاحين أنهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة ..

فتساءلت رادوبيس دهشة :

— كيف تواتيهم شجاعتهم ؟

فقال آنى :

— البلاد في سلام ، والحرس الفرعوني هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد

بها ، والكهنة تواتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية !

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق :

— يا لهم من أوغاد !

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأياً فقال :

— إذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها

وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدجته الشاعر رامون حتب بنظرة تحد ، وكان مغرماً بإثارة الزوابع ،

وسأله فى اقتضاب :

— وخنوم حتب ؟!

فهز هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

— هو كاهن كما ينبغى ، وسياسى نافع ، وليس من ينكر عليه قوة الإرادة ،

ونفاذ البصيرة .

وتململ الحاكم آنى . وهز رأسه بشيء من العنف ، وقال :

— لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش !

فقالت رادوبيس بحدة :

— بل أعلن غير ذلك !

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

— أنا أعرف نحنوم حتب جيدا ، وهو بلا شك مخلص لمولاه ولوطنه .

فقال آنى بغرابة :

— لم يبق إلا أن تصرح بأن فرعون مخطئ ..

— كلا .. إن فرعون شاب سامى الآمال ، يرغب فى أن يكسو بلاده حلة من

البهاء ، ولن يأتى ذلك إلا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب فى حيرة شديدة :

— فمن المخطئ إذا ؟!

فقال هوف :

— عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق !

ولكن رادوبيس لم ترتح إلى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض عن الموازنة التى

يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان . وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهى أن

فرعون سيد البلاد دون منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ولأى سبب ،

ونفر قلبها من كل رأى يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأيها لأصحابها ،

وختمت كلامها بقولها :

— إنى أعجب متى آمنت بهذا الرأى ؟!

فقال رامون حتب مداعبا :

— حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة .. لا تفرطى فى العجب

فالجمال مقنع كالخق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :

— أدرن الكئوس أيتها الجوارى .. وهلمى أيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنا شجيا ، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشيق ، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر مريوط ، وهياها العيد للفرح والمسرة ، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون . فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن لاحت منها التفاتة إلى التاجر عائن ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا بعيدا عن الجماعات فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة آنى ، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر ، وصرخت فى وجهه : « أصبح » فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها ، فجلست إلى جانبه وسأله :

— أكنت نائما ؟

— بل كنت أحلم .

— آه .. فيمن ؟

— فى ليالى بيعة السعيدة ، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالى الخالدات ؟! أيمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد ! فهزت رأسها أن لا ، فجزع ، وسألها بخوف وإشفاق :

— له ؟

— قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيدها بوعد خائن ؟! وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ، فرحبوا بها فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال واحد منهم يدعى شامة :

— ألا تشتركين معنا فى الحديث ؟

— وفيم تتحدثون ؟

— يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلا للتكريم الذى يجبوهم به الفراعنة والوزراء .

— وهل أجمعتم على رأى ؟

— نعم يا مولاتى . على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالى شيئا ، فنظرت رادوبيس إلى حيث يجلس الفنانون : رامون حتب ، وهنفر ، وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فائن ساحر ، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين :

— ينبغى أن يكون هذا الحديث عاما ، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا إن الفن عرض تافه ، وأن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم ؟!

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التى تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هنفر ابتسامة هزء ، أما رامون حتب فاصفر وجهه غضبا ، لأنه كان شديد التأثر ، وكان شامة متعجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

— إني رجل عمل وجد ، أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لى خيراتها من الأنعم السابغة ، فأفيد ويفيد معى الآلاف من المحتاجين ، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق ..

وأدلى كل من الرجال بدلوه ، إما للتنفيس عن حقد طال حفظه أو لمجرد الثثرة والإعلان عن النفس ، فقال أحد الكبار يدعى رام :

— من الذى يحكم ويسوس الناس ؟.. من الذى يفتح البلدان ويغزو المعازل ؟.. من الذى يجلب الثروة والخيرات ؟.. أناس غير الفنانين بلا ريب .. وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر :

— إن الرجال يهيمون بحب النساء ، ويهدون بذكرهن فى خلواتهن ، أما الشعراء فيبسطون هذيانهم فى كلام موزون ، وإلى هنا لا يجد المعازل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته ، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنا من المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى :

— ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما ، ويهيمون في وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام ، يزعمون أنهم رسل وحى كريم .. والأطفال تكذب كذبهم ، وكثير من العامة ، ولكنهم لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوبيس طويلا ، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر ، وقالت هازئة :

— ويحك أيها الرجل .. لماذا إذا تسير مختالا فخورا كأنك بلغت الجبال طولا ؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء ، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعالىا منهم عن الرد على « المتهمين بغير علم » ، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد ، وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند ذاك ، فالتفت إلى الفيلسوف هوف . ووجهت إليه هذا السؤال :

— وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين ؟

— الفن هو ولعب ، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم ، فلم يملك الحاكم أنى نفسه من الضحك . وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حتب بغضب :

— أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدا خالصة ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء ، وقال والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— كلا ، ما إلى هذا قصدت ، فاللعب ضرورة ، ولكن ينبغى أن تذكر أنه

لعب .

فسأله هنفر بتحد :

— هل الإبداع الملهم لعب ؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

— أنت تسميه الإلهام والإبداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال .
ونظرت رادوبيس إلى المعمار هنى تحته على خوض المعركة ، وتحاول أن
تخرجه عن صمته الطبيعى . ولكن الرجل لم يلب إغراءها ، لا استهانة منه
بالموضوع الذى يثير النقاش ، ولكن اعتقادا منه — إن حقا كان أو وهما — أن
هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفر ورامون حتب — على الأخص —
بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيعة ، وسأل
الفيلسوف بلهجة حاقدة :

— إذا كان الفن لعب خيال ، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به ؟
— لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم
الطفولة والخيال !

فهز الشاعر كتفيه استهانة ، وقال :
— إن هذا الكلام لا يستحق الرد عليه ..
وأمن على قوله هنفر ، وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع
صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظره فى الوجوه الساخرة ، وقال
بحدة :

— أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا ؟
فقال له عانن ، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :
— ما أتفه هذا .

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :
— ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى . أيجوز أن أذكر اللذة
والجمال ، فيقال لى إنها شئ تافه .. وهل توجد غاية فى الدنيا وراء الجمال
واللذة ؟!

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن
الغانية ، وقال :

— صدق وحق جمالك يا رادوييس ، إن الحياة تمضى كحلم سريع الزوال ،
فأنا أذكر مثلاً أنى حزنت لموت أبى حزنا بالغاً وبكيتته مر البكاء ، ولكنى الآن إذا
عاودتنى ذكراه أسائل نفسى : أحقا عاش ذلك الإنسان على الأرض ؟ أم أنه
وهم خادع يتراءى لى فى غبش الظلام ؟! هكذا الحياة . فماذا أفاد الأقوياء بما
أحدثوا فيها من قوة ؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال و ثراء ؟ وماذا اكتسب
الحاكمون بما حكموا . وما ساسوا ؟! هباء فى هباء .. قد تكون القوة حماقة ،
والحكمة خطأ ، والثروة غرورا . أما اللذة فهى لذة ، ولا يمكن أن تكون غير
ذلك . فكل ما خلا الجمال باطل !

فبدا الجد على وجه رادوييس الفاتن ، وقالت له وقد لاحت فى عينيها
الأحلام :

— ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل أيضا ؟. ألا ترانى
أمضى العمر فى دعة وانتهاب لذة ، وتملى الحسن والجمال ؟. ومع هذا فكم
يطاردنى الملل والسأم !..

ووجدت رادوييس أن رامون حتب فى حالة سيئة ، وطالعت الاستياء فى
وجه هنفر ، وصمت هنى ، فأشفقت من إيلاهم ، وعدت نفسها مسئولة عما
أصابهم ، فقالت تغير مجرى الحديث :

— حسبكم أيها السادة .. فمهما قلتم فلن تنفكوا تطلبون الفن والفنانين ، كم
تحبون يا هؤلاء الخصام . إنكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعا للجدل
والخصام !..

ضاق الحاكم آنى بالحديث ذرعا ، فقال لها بتوسل :

— اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .

وكان الجميع يتوقون للسمع والطرب ، فضموا توسلاتهم إلى الحاكم ،
ووافقت رادوييس ، وكانت شبعت من الكلام ، واستولى عليها قلق غريب
تردد عليها مرات فى يومها ، وظنت أن الغناء أو الرقص يزيله ، فقامت إلى

عرشها وأمرت بالعازفات فجئن بالدفوف والقيثارة والناى والونج والصفارة
ووقفن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل والنقر الرشيق ،
يهيئن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى والطرب . ثم مضت تخفت أنغام
آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الداهلين ، وأنشأت رادوبيس تغنى
قصيدة رامون حتب :

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء ، أعيرونى آذانكم
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم
الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم
وقد شبعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم ، فأين
الفراعنة ، أين الساسة ، أين الغزاة ، هل حقا
القبر عتبة الخلود ، ولكن لم يأت من القبر رسول
يطمئن قلوبنا ، فلا يفوتكم طرب ، ولا تفوتكم لذة !
لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ !

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهى حنون ، أطلق الأرواح من قيود
الأجسام ، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة ، وذهلت عن متاعب الأرض
وهوم الدنيا . وشاركت فى التجلى الأعلى ، وظل القوم بعد إمساكها نشاوى
يتنهدون فرحا وحزنا ولذة وألما ..

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إلاه ، فاستبقوا إلى الشراب ، وهدفوا
بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين ، وتداعبهم ، وتماجنهم ، وتشاربهم ، ولما
دنت من آنى همس فى أذنها :

— أسعدتك الأرباب يا رادوبيس .. جئتكم شبحا مثقلا بالتبعات وإخال
نفسى الآن طيرا يخلق فى السماء .

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب ، وأهدته زهرة لوتس عوضا

عما فقد ، فقال لها :

— يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال ، ألا سحقا لرأيه .. إنه ومضة إلهية
تشع من عينيك ، وتدور مع وجيب قلبي ، ثم تأتي بالأعاجيب ..
فقلت له ضاحكة :

— أخرج مني شيء يأتي بالأعاجيب ، وأنا أعجز من الرضيع ؟
ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف ، وجلست إلى جانبه ، ولم يكن ذاق خمرا ،
فحدجته بنظرة فاتنة ، فضحك الرجل ، وقال متهمكا :
— يا سوء ما اخترت جليسا .

— ألا تحبني كهؤلاء ؟

— ليتنى أستطيع .. ولكنى أجد فيك ما يجده المفلت في المدفأة .

— إذا انصحتني ماذا أصنع بحياتي لأنى اليوم أشكو ؟

— أتشكين حقا .. أنعيم و ثراء وشكوى ؟

— كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم ؟

— الجميع يشكو يا رادوييس ، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين
الذين يتلهفون على كسرة خبز ، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يثنون
تحت عبء التبعات الجسام ، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد
برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى
بما قسم لك .

— وهل يشكو الناس في عالم أوزوريس ؟

فابتسم الشيخ وقال :

— آه .. إن صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير . أما الكهنة العالمون

فيقولون إنه عالم الأبدية ، فصبرا أيتها الحسناء ، إنك ما زلت قليلة التجارب .

فعاودتها موجة المجون والسخرية ، وأرادت أن تداعب الفيلسوف ، فقالت

بلهجة جدية منصعة :

— أحقا أنى قليلة التجارب .. إنك لم تر مما رأيت شيئا ؟

— وماذا رأيت مما لم أر ؟

فأشارت بنانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة :

— رأيت هؤلاء الرجال المبرزين ، وصفوة مصر سيدة الدنيا ، يسجدون عند قدمي ، وقد ردوا إلى الوحشية ، ونسوا حكمتهم ووقارهم ، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة !

ثم ضحكت ضحكة رقيقة ، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط البهو ، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار ، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التي يبدع فيها جسمها اللدن ، ويأتى بالمعجز من الخفة والتشنى ، وغلب الطرب القوم على أنفسهم ، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف ، واتقدت في الأعين أنوار خاطفة ، وختمت رقصتها ، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها ، وجالت بعينها في أوجه القوم الجشعة ، فرأت ما أضحكها قهرا ، وقالت :

— لكأنى بين الذئاب .

وأعجب عانن الثمل بالتشبيه ، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة الجميلة ، وحققت له الخمر ما تمنى ، وظن نفسه ذئبا حقا ، فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا ، ولكنه ثابر على العواء ، وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف ، حتى صار منها على قيد شبر ، ثم قال لها :

— اجعلى هذه الليلة من نصيبى ..

ولكنها لم ترد عليه ، والتفتت إلى الحاكم آنى ، وقد جاء يحياها تحية الوداع ، فأعطته يدها ، ثم تلاه الفيلسوف هوف ، وقد سأله ضاحكة :

— ألا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك ؟

فهرز رأسه ضاحكا وقال :

— أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم فقط !

ورجا كل أن تكون الليلة له ، وألحف فى الرجاء ، وتنافسوا فى ذلك تنافسا

شديدا حتى خرج الأمر . وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال :
— ليكتب كل منكم اسمه في ورقة ، ولنضع الأسماء جميعا في صندوق عائن
العاجي ، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ ..
واضططر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم ، إلا عائن خشي أن
تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع :
— مولاتي .. أنا رجل سفر ، اليوم بين يديك ، وغدا في بلد بعيد لا أبلغه إلا
بشق الأنفس ، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها إلى الأبد ..
ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم ، وردوا عليه هازئين . وكانت رادوبيس صامطة
.. تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها القلق الغريب ، فأحست برغبة
في الفرار والانفراد . وضجرت من الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين
الأمل والخوف ، فقالت :

— لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة ، فلن أكون الليلة لإنسان !
وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين ، لا يصدقون أذانهم ، ثم لم يلبثوا أن
ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى . فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه
الكلام إليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت :
— إلى تعب .. دعوني أستريح ! ..

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان على عجل ..
وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها تلك الليلة ، وما
تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة .. وشخصت إلى النافذة رأسا وأزاحت
عنها الستارة ، ونظرت إلى الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات
وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان ، فلذ لها منظرهم وارتسمت
على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت ؟ .. لا تدري ! ولكنها تشعر باضطراب وقلق ..
واها .. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة ؟ . لقد حارها الجواب ، ولم يرو غلتها

الحكيم هوف نفسه ، ثم استلقت على سريرها الوثير ، واستسلمت للأحلام ،
فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة في إثر الأخرى : فرأت
جموع المصريين المحتشدة .. ورأت عيني الساحرة المتقدتين اللتين جذبتاها إليها
بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذي يبعث الرعدة في المفاصل .. ثم
شاهدت فرعون الشاب في هالة المجد والجمال ، ثم ذلك النسر الهصور الذي
انقض على فرادة صندلها وطار بها إلى السماء . حقا كان يوما حافلا . ولعل هذا
أيقظ عواطفها ، وشرد خيالها ، ووزع نفسها أشتاتا ، مما ذهب ضحية له
العشاق البائسون ، إن قلبها يخفق خفقانا شديدا ، ونفسها تضطرم بلهيب
غامض ، وخيالها يتيه بها في وديان غريبة . وكأنها تود أن تنتقل من حال إلى
حال ، ولكن أى حال هذه ؟! إنها حيرى لا تدرى شيئا ، فهل يكون ما بها نفثة
سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة ؟!
إن ما بها لسحرا مبينا ، فإن لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر الأقدار المسيطرة
على المصائر .

طاهو

كانت قلقة مبليبة موزعة النفس ، فيئست من النوم . وغادرت السرير مرة أخرى ، ودلفت إلى نافذة تطل على الحديقة ، وفتحتها على مصراعها ووقفت وراءها كالتمثال ، ثم حلت عقدة شعرها ، فانساب في خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبها ، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق ، وملأت رثتها بهواء الليل الرطب ، ثم وضعت مرقعها على حافة النافذة ، وأسندت ذقنها إلى كفها . وتاهت عيناها في الفضاء الشامل للحديقة . والنيل الجارى وراءها . كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو ، يهب نسيمها متقطعا خفيفا ضعيفا فراقص الغصون والأوراق رقصار حيمارقيقا ، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء . أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع ، ترسل شعاعا باهتا ما أن يقترب من الأرض حتى يفرق في بحار الظلمة .

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيها على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة ؟. هيات .. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة متناه ، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة ، وأسلمت إليها خدوها الأيمن ، وأغمضت عينيها .

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف : « فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى بما قسم لك » . وتنهدت من أعماق قلبها ، وتساءلت في حزن . أما من فائدة ترجى من التغيير حقا ؟.. أحقا أن الشكوى تلاحق الإنسان أبدا ؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانا صادقا يصرف قلبها عن طلب التغيير ؟ إن ما بقلبها ثورة حامية ، تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها ، وتفر خالصة إلى آفاق غامضة مجهولة . فكيف تجد الراحة والقناعة ؟

إنها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى ، ولكنها جزعة برمة بكل شيء .
ولم تترك لأفكارها وأحلامها ، إذ سمعت طرقا خفيفا على باب مخدعها ،
فأرهفت أذنيها دهشة ، ونادت قائلة وهي ترفع رأسها :
— من ؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة :
— أنا يا مولاتي .. أسمحين لي بالدخول ؟
فقلت :

— تعالى يا شيث ..
ودخلت الجارية على أطراف أصابعها ، ودهشت لوقوف سيدتها ، وأن
سريرها لم يمس ، وعاجلتها الغانية قائلة :
— ماذا وراءك يا شيث ؟
— ورأى رجل ينتظر الإذن بالدخول .
فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :
— أى رجل !.. اطرديه دون تردد .
— كيف يا مولاتي .. إنه رجل لا يغلق دونه باب هذا القصر .
— طاهو .
— هو بعينه .

— وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟
فلاحت فى عيني الجارية نظرة مأكرة ، وقالت :
— هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتي .
فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية ، لحظات ، ثم لم يلبث أن ملأ
فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض . وحياتها بانحناءة من رأسه ووقف
أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك . ولم يخف عليها شحوب لونه ، وتجدد جبينه ،
وظلمة عينيه ، فأنكرته ، وسارت إلى الديوان ، وجلست عليه وسأله :

— أراك متعبا .. هل أجهدك العمل ؟

فهز رأسه بالنفى ، وقال باقتضاب :

— كلا .

— لست كعهدي بك .

— حقا ! .

— لا شك أنك تعلم هذا .. ماذا بك ؟

هو يعلم كل شيء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أداه إليها بنفسه أم لم يؤده . وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد . ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على إرادتها لكان كل شيء ، ولكنه يكاد أن ييأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها :

— آه يا رادوبيس ! لو كنت تبادليني الحب لأمكن أن أتوسل إليك باسم

حبنا .

ترى ما حاجته إلى التوسل ؟ .. عهدا به رجلا عنيفا يكره التوسل والرجاء ، وطالما قنع بفتنة جسمها ، فما الذي أفزعه ؟! . وخفضت عينيها وقالت :

— هذا حديث قديم معاد .

فأغضبه قولها على صدقه ، واحتد قائلا :

— أعلم ذلك .. ولكني أعيده لدواع حاضرة .. آه .. لكأن قلبك غار

أجوف في قاع نهر بارد ..

كانت ألقت أمثال هذا المقال ، ولكنها قالت متململة :

— هل منعتك شيئا تشتهي ؟

— كلا يا رادوبيس . لقد وهبني جسمك الفاتن الذي خلق عذابا للبشر .

ولكن طالما طمعت في قلبك . ياله من قلب يا رادوبيس .. إنه يقف وسط زوابع الشهوات جامدا كأنه ليس منك ، ولطالما ساءلت نفسي متحيرا مغيظا ، ماذا

يعينى ؟. أأست رجلا بل أنا رجولة كاملة . والحقيقة أنك بدون قلب ..
وازداد إنكارها له ، ليست هذه المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام ؛
ولكنه كان يقوله ساخرا أو غاضبا غضبا خفيفا .. أما فى هذه الساعة المتأخرة من
الليل ، فإنه يتكلم بصوت متهدج ويتميز غيظا وحنقا . فما الذى أهاجه ؟
وكأنها أرادت أن تستحثة فسألته :

— أأئت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنى هذا الحديث ؟
— كلا لم أأىء من أجل هذا الحديث .. ولكننى أأئت من أجل أمر
خطر .. إن لم يسعبنى الحب فيه ، فلتسعبنى حريرتك التى تحرصين عليها .
فأظرت إليه فى اهتمام شديد ، وأنتظرت أن يتكلم ، وبلغ به الضيق أشده ،
فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لف ولا دوران ، فقال لها بهدوء وحزم وهو
يصوب عينيه إلى عينها :

— ينبغى أن تهجرى قصر بيعة ، وأن تفرى من الجزيرة فرارا فى أقرب
وقت .. قبل أن ينبلع الصباح .

فارتأعت المرأة لقوله ، وأظرت إليه بعينين لا تصدقانه وسألته :

— ما هذا الذى تقوله يا طاهو ؟

— أقول إنه ينبغى أن تختفى .. أو تفقدى حريرتك .

— وماذا يهدد حريرتى فى بيعة ؟

فأصر على أسنانه ، وسألها بدوره :

— ألم تفقدى شيئا ثمينا ؟

فأالت داهشة :

— بلى . فقدت فردة صندلى الذهبى الذى أهديتنىه .

— كيف ؟

— أظفه النسر وأنا أستحم فى بركة الحديقة .. ولكنى لا أدرى أى علاقة

توجد بين حريرتى المهددة وصندلى المفقود ؟

— مهلا يا رادوبيس .. لقد خطفه النسر حقا ، ولكن ألا تدرين أين سقط ؟

وجدته يتكلم بلهجة العارف ، فاستولى عليها العجب وتمتمت قائلة :

— من أين لي بهذا يا طاهو ؟

فتهد قائلا :

— سقط في حجر فرعون .

وقرعت هذه الكلمة أذنيها في هالة من دوى هائل ، ملأ حواسها جميعا ، وأذهلها عن كل شيء . فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين ، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها ، وكان القائد يتفرس وجهها بعينين قلقتين مرتابتين ، ويتساءل : ترى ما وقع الخبر في نفسها ؟ وما الإحساس الذى يعتلج في صدرها ؟ وضاق ذرعا . فسألها بصوت خافت :

— ألم أكن محقا في طلبى ؟

ولكنها لم ترد عليه ، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى إليه . كانت غارقة في لجج تلتطم في قلبها الحائر ، فهاله جمودها ، وكبرت عليه حيرتها ، ورأى في ذلك آية نفر منها قلبه ، فذهب صبره ، واستنفره الغضب ، فغشى بصره ، وصاح بها بصوت أجش شديد :

— فى أى واد تتهين يا هذه ؟.. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل ؟

فارتجف جسمها من شدة صوته .. والتهب الغضب بقلبها ، وحدجته بنظرة حقد شديدة ، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما يريد ، وسألته ببرود :

— أترى أنه كذلك ؟

— أرى أنك تتغابين يا رادوبيس .

— كم أنك ظالم .. هب أن الصندل سقط في حجر فرعون ، فهل تراه قاتلى

لذلك ؟

— كلا ، ولكنه قلب الصندل بين يديه ، وتساءل عمن عسى أن تكون صاحبه ؟

فخفق قلب الغانية بشدة وسأله :

— وهل وجد الجواب ؟

فأظلمت عيناه ، وقال بصوت متهدج :

— كان هناك إنسان بتربص بى ، جعلته الأقدار صديقا وعدوا
صديقا ، فانتهر الفرصة السانحة ، وطعننى طعنة نجلاء ، فذكرك عند فرعون
ذكرا جميلا مغريا ، قدح الرغبة فى قلبه ، وأهاج الشهوة فى صدره .

— سوف خائب ؟!

— هو بعينه ذاك الصديق العدو ، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشاب .

— وماذا يريد ؟

فعمد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشدة :

— ليس فرعون بالإنسان الذى يرغب فى شىء ، ويعز عليه ، وهو إذا هوى
شيئا يعرف كيف يستأثر به .

وساد الصمت مرة أخرى ، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطربة ، وجثم
الكابوس على صدر الرجل ، واشتد به الحنق لصمتها ، ولأنها لم تفزع ولم
ترتعب ، فقال لها بغیظ :

— ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر ؟ حريتك يا رادوبيس التى تحرصين
عليها ، ولا تفرطين فيها . حريتك التى دمرت قلوبا وأهلكت نفوسا ، وجعلت
اللوعة والحسرة واليأس أوبئة تفتك بأهل بيعة جميعا ، لماذا لا تفزعين إلى الفرار
بها ؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها ، وقالت له بسخط :

— أتقذفنى بهذا الوصف الذى تقشعر منه الأبدان ، وكل ذنبى أنى لم أستبح

نفسى للرياء ، وأقول لإنسان كذبا إني أحبه ؟

— ولماذا لا تحبين يا رادوبيس ؟ لقد أحب طاهو الجندى الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال ، وتربى على ظهور العجلات . فلماذا لا تحبين أنت ؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة ، وتساءلت :

— ترى هل أملك جوابا على سؤالك ؟

— لست أبالى هذا الآن ، فما لهذا جئت .. أسألك ماذا أنت فاعلة ؟.

فقلت بهدوء ، واستسلام عجيب :

— لست أدرى .

فاضطربت عيناه كجمرتين ، والتهمتاها بحلق ، وأحس برغبة جنونية فى

تخميم رأسها . وحدث أن نظرت إليه فتتنفس تنفسا عميقا ، وقال :

— حسبتك أشد حماسا لحريتك .

— وما عسى أن أفعل ؟

فضرب يدا بيد ، وقال :

— تفرين يا رادوبيس ! تفرين قبل أن تحملى إلى قصر الحاكم جارية من

الجوارى ، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها ، ثم تعيشين هنالك فى

وحدة وعبودية ، تنتظرين نوبتك مرة كل عام ، تعيشين ما بقى من حياتك فى

جنة حزينة يطوف بها سجن كئيب .. هل خلقت رادوبيس لمثل هذه الحياة ؟!

. وثارت ثائرتها غضبا لكرامتها وكبريائها . ترى من الممكن أن يكون حظها

ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة ؟

أيقدر لها فى النهاية — هى التى يستبق إلى رضاها صفوة الرجال — أن تقاسم

الجوارى قلب فرعون الشاب ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحرم الفرعونى ؟

أتهوى إلى الظلمات بعد النور ، وتتلفع بالهوان بعد العزة ، وتقنع بالعبودية بعد

السيادة الجبارة الكاملة ؟ .. أواه .. ما أبشع التصور وأغرب الخيال .. ولكن هل

تفر كما يريد طاهو ؟ .. أترضى بالفرار ؟. رادوبيس المعبودة التى لم يحظ بحسنها

وجه ، ولم يشحن بسحرها جسم ، تفر من العبودية ؟ .. فمن إذا التي تطمع في
السيادة والاستئثار بالقلوب ؟!

ودنا منها خطوة ، وقال لها بتوشل :

— رادوييس .. ماذا تقولين ؟

فعاودها الغضب ، وقالت بسخرية :

— ألا يسوءك أيها القائد أن تغريني بالهرب من وجه مولاك ؟

وأصابته سخريتها في صميم قلبه ، فترنح من هول الصدمة ، وقال بسرعة ،
وقد أحس بمرارة في فمه :

— لم يرك مولاي بعد يا رادوييس . أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد . أنا
أسير لهوى جامع لا يعرف الرحمة ، يوردني موارد الهلاك ، ويطوئني بقدم الذل
والعذاب ، إن صدرى أتون من عذاب ملتهب ، وقد اشتد لهيبه اندلاعا حين
أشفق من فقدك إلى الأبد . فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبي ، ولا أخون
مولاي المعبود قط .

لم تلق بالا إلى شكواه ، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه ، كانت ما تزال تثور
لكبريائها ، ولذلك حين سأها الرجل عما تنوى عمله ، هزت رأسها بعنف كأنما
تريد أن تنفض عنها الوسوس الحقيرة وقالت بصوت بارد مليء بالثقة :

— لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل في ذهول ويأس ، وسأها :

— هل رضيت بالهوان وأسلمت للذل ؟

فقلت ، وعلى فمها ابتسامة :

— لن تذوق رادوييس الذل أبدا .

فاستشاط غضبا ، وقال :

— آه لقد فهمت . تحرك شيطانك القديم ، شيطان الغرور والكبر والقوة ،

ذلك الشيطان يحتمى ببرودة قلبك الأبدية ، ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين

والتحكم فى المصائر ، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد ، وأراد أن يجرب قوته وسطوته ، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين ، غير عابئ بما يدوس فى سبيله الشيطانى من أشلاء القلوب ، وذوب النفوس ، وأنقاض الآمال .. آه .. لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا الخنجر ؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة ، وقالت :

— لم أمنعك شيئاً ، وطالما حذرتك من الإغراء !

— إن هذا الخنجر كفيل بتهدة نفسى .. كم تكون نهاية طبيعية

لرادوبيس ؟

فقلت بهدوء :

— وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو !

فنظر إليها طويلاً بعينين جامدتين ، وكان يشعر فى تلك اللحظة الفاصلة بيأس

ميت وقنوط خائق ، ولكن غضبه لم ينفجر ، وقال بلهجة باردة قاسية :

— ما أقبحك يا رادوبيس .. أنت صورة بشعة مشوهة ، ومن يحسبك جميلة

أعمى لا يبصر . إن صورتك قبيحة لأنها صورة ميتة ، ولا جمال بلا حياة ، لم

تنبض الحياة بصدرك قط ، ولم تدفئ قلبك أبداً . أنت جثة وسيمة القسمات ،

ولكنها جثة . لم يبد الحنان فى عينيك ، ولا انفرحت شفتاك عن ألم ، ولا خفق

قلبك بالعطف . نظرتك جامدة وقلبك قد من حجر .. أنت جثة ملعونة ،

وينبغى أن أكرهك ، وأن أكرهك ما حييت .. وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء

لك شيطانك ، ولكنك ستصرعين يوماً محطمة النفس ، وهذه نهاية كل شر ..

لماذا أقتلك إذا .. لماذا أحمل تبعة قتل جثة ميتة ؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثم ذهب .

ولبثت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين ، حتى غمرها سكون الليل ..

ثم رجعت إلى النافذة . كان الظلام شاملا ، والنجوم ساهرة في مآدبها
الأبدية ، والسكون مخيما رهيبا ، فخالت أنها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها
الدفينة .

كان ما بها قويا عنيفا بالحرارة والقلق ، يقسم أن جسمها جسم نابض
بالحياة ، لا جثة هامدة ..

فرعون

وفتحت عينيها فرأت ظلمة . ترى أما يزال الليل جائما ، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم ؟ . ولبثت دقائق لا تعي شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا ، كأنها جهلت الماضي كما تجهل المستقبل ، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الخالكة . وأحست هنية بذهول وضيق ، ثم ألقت عيناها الظلمة فبهتت ونخفت وطأتها ، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من خصائص النوافذ فتبينت أثاث المخدع ، ورأت المصباح المدلى المكفت بالذهب ، ووجل الشعور حواسها ، فذكرت أنها ظلت يقظة لا يذوق جفניה نوم حتى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادي ، وأنها ارتمت عند ذاك على السرير ، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها ، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثاني ، أو في مساءه .

وذكرت حوادث الليلة الماضية ، وعادت إلى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغبى ويزبد ، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت ، ياله من رجل عنيف ! إنه لرجل جبار شديد الغضب ، وحشى الغرام ، ولا عيب فيه إلا أن حبه عنيد مثابر ، شديد التغفل . وتمنت صادقة لو ينساها أو يمجتها ، إنها لا تجنى من الحب سوى المشقة . الكل يتلهف على قلبها ، وقلبها زاهد نافر ، كحيوان غير أليف . وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثرة ومآسى أليمة ، وهى كارهة . ولكن المآسى كانت تتبعها كظللها ، وتحوم حولها كخواطرها ، فلوثت حياتها بالقسوة والآلام .

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب في رؤية صاحبة الصندل ، وأنه سيدعوها حتما إلى حريمه العامر .. آه .. إن فرعون شاب ملتهب الدماء ، جنونى الشباب . كما قيل لها ، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال ، ولا مستحيلا أن تصدق أقواله ، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدا ، إن

ثقتها بنفسها لا حد لها .

وسمعت طرقا على الباب ، فقالت بصوت متكاسل :

— شيث .. ادخلي .

وفتحت الجارية الباب ، ودخلت تسير في خفتها المعهودة وهي تقول :

— حمدا للرب الذي يسر لك النوم بعد طول السهاد .

وارحمته لك يا مولاتي ، لا بد أن الجوع نال منك كل منال .

وفتحت النافذة ، فانبعث منها نور مكلل بسمرة ، وقالت ضاحكة :

— غابت شمس اليوم دون أن تراك ، فباعت من زيارتها للأرض بالخسران .

وسألتها رادوبيس وهي تتمطى وتشاءب :

— أأتى المساء ؟.

— نعم يا مولاتي ، والآن هل تذهبين إلى الماء المعطر أم تتناولين الطعام ؟..

وأسفاه أنا أعلم بما شهد جفنيك بالأمس !

فسألته باهتمام :

— ما هو يا شيث ؟

— إنك لم تدفئي الفراش برجل :

— خسئت يا مأكرة .

فقالت الجارية وهي تغمز بعينيها :

— الرجال عادة مستبدة يا مولاتي ، ولولا هذا ما احتملت غرورهم .

— حسبك ثرثرة يا شيث .

وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :

— هلمى بنا إلى الحمام .. فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال ، ويؤلمهم

أن يروه خاليا منك .

— هل جاءوا حقا ؟.

— وهل خلا بهو استقبالك منهم قط في هذه الساعة ؟

— لن أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت إلى سيدتها بارتياح ، وقالت :

— خيبت بالأمس آمالهم .. فماذا تقولين اليوم ؟ .. آه . لو تعلمين يا مولاتي
كم جزعوا لتأخر حضورك .
— آذنيهم بأني تعب .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت بها بعنف :

— اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غير مولاتها .

وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت إن هذا ليس وقتهم ، فهي لا تستطيع أن
تجمع شتيت أفكارها لتصغى إلى إنسان ، ولأن تحصر خواطرها في حديث فضلا
عن أن ترقص أو تغنى .. فليذهبوا جميعا .. وخشيت أن تعود شيث بتوسلات
القوم ، فقامت من السرير وهولت إلى الحمام ..

وتساءلت في وحدتها : ترى هل يرسل فرعون في طلبها هذا المساء ؟ .. آه أهى
لهذا تضطرب وتقلق ؟ .. أهى تخشى ؟ .. كلا .. إن هذا الحسن الذى لم تحظ بمثله
امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد لها ، وإنها لكذلك .. ولن يقاوم
جمالها إنسان ، ولن يذل حسننها لمخلوق ، ولو كان فرعون نفسه ، ولكن لماذا إذا
هى مضطربة قلقة ! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذى تلبسها مساء
الأمس ، والذى نبض بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب
الواقف على ظهر عجلته كالتمثال . يا عجباً .. أتراها حائرة لأنها حيال لغز
غامض ! واسم جبار هائل ! ورب معبود !، أترى أنها تود لو تراه في نشوة البشر
بعد أن رآته في جلال الآلهة ؟ ! أتراها قلقة لأنها تريد أن تطمئن إلى قوتها بإزاء هذا
الحصن المنيع ! .

وطرقت شيث باب الحمام ، وقالت إن السيد عائن أرسل معها كتابا إلى
مولاتها ، فغضبت الغانية ، وقالت بعنف « مزقيه إربا » ، وخشيت الجارية أن

تثير غضب مولاتها عليها ، فذهبت تتعثر في الارتباك . وغادرت رادوييس الحمام إلى مخدعها في أجمل صورة وأكمل هيئة ، وتناولت الطعام وشربت كأسا مترعة من خمر مريوط . ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان ، فتلقته بنظرة تحذير ووعيد ، وقالت الجارية في خوف :
— في البهو رجل غريب يلح في مقابلتك .

فاستولى الغضب على الغانية ، وصاحت بها :
— هل أصابك مس من الجنون يا شيث ؟ أتحالفين أولئك القوم المزعجين على ؟!

فقالت الجارية وهي تلهث :
— صبرا يا مولاتي .. لقد دفعت الزوار جميعا ، أما هذا الرجل فغريب لم تره عيني من قبل .. التقيت بغته به في الردهة المؤدية إلى البهو ، ولا أدري من أين أتى .. وحاولت أن أعترض سبيله ، ولكنه سار بغير مبالاة ، وأمرني أن أبلغك رجاءه .

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة ، وسألتها باهتمام :
— هل هو من ضباط الحرس الفرعوني ؟
— كلا يا سيدتي .. إنه لا يرتدى زي الضباط .. وقد سألته أن يعلن لي عن شخصيته ، فhez منكبيه باستخفاف ، فأكدت له أنك لا تقابلين أحدا اليوم .. ولكنه استهان بكلامي ، وأمرني أن آذنك بانتظاره .. أواه يا مولاتي .. إني أحرص على رضاك ، ولكنني لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقل الجريء .
وتساءلت أيكون هو رسول الملك ؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها .. وجرت إلى المرأة ، وألقت على صورتها نظرة فاحصة ، ثم دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت في المرأة ، وسألت الجارية :

— ماذا ترين يا شيث ؟

فقلت الجارية ، وهى تدهش لتبدل حال مولاتها :
— أرى رادوبيس يا مولاتى !

وغادرت الغانية المخدع ، تاركة جاريته فى دهشتها وحيرتها ، وانتقلت
كالحمامة من حجرة إلى حجرة ، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفاخر
السجاد ، وترشت قليلا عند مدخل البهو .. رأت رجلا يوليها ظهره ، ووجهه إلى
جدار البهو يطالع شعرا الرامون حتب .. ترى من هو ؟ كان فى مثل طول طاهو
ولكنه أميل إلى النحافة والدقة ، عريض المنكبين ، جميل الساقين ، على ظهره
وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكبيه ومنطقة وزرته ، وعلى رأسه قلنسوة
جميلة ذات شكل هرمى لا تشبه قلنسوات الكهنة ، ترى من يكون ؟. إنه لا
يشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ .. ولما صارت منه على قيد خطوات
قالت بصوت خفيض :

— سيدى !

فالتفت الرجل الغريب إليها .

رباه !. وجدت نفسها وجها لوجه أمام فرعون . فرعون نفسه بعزته
وجلاله ، مرئع الثانى دون غيره من الخلق !
رباه لقد زعزعت المفاجأة كيائها ، فأخذت قهرا ، وغلبت على أمرها . ترى
أهى فى حلم من الأحلام ! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر ، والأنف
الأشم الطويل . إنها لا يمكن أن تنساه أبدا ، لقد رأته مرتين ، فنفذ إلى ذاكرتها
بقوة ، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول . ولكنها لم تحسب حساب هذا
اللقاء ، ولا أخذت أهبتها له ، لم ترسم له خطة من خططها البارعة . وهل كانت
رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليا ، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة ؟.
أخذت على غرة ، فقهرت قهرا ! ومنيت بالهزيمة الساحقة ، ويادرت تنحنى
لأول مرة فى حياتها ، وتقول بصوت متهدج : « مولاي » .

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة ، فتستقر على وجهها الجميل ، وكان

يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة ، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماتها
بنشوة فاتنة ، فلما حيته قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة واللهجة العالية :
— أتعرفيننى ؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقى :
— نعم يا مولاي .. هكذا شاء حظى السعيد أمس .
وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها . وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه
وعقله ، فلم يعد يأبه لإرادته ، واندفع قائلاً :
— إن الملوك قوامون على الناس ، يسهرون على أرواحهم ، وعلى أموالهم ،
ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة .
ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه ، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها
وهو يقول :

— أليس هذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون ، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه
بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئاً ، وتمتت بانفعال شديد :
— صندلى !

فضحك الملك ضحكة عذبة ، وقال وعيناها لا تتحولان عنها :

— بعينه يا رادوبيس ، أليس هذا اسمك ؟

فأحنت رأسها ، وتمتت قائلة « نعم يا مولاي » وكانت مضطربة فلم تزدد ،
أما الملك فاستدرك :

— إنه لصندل جميل ، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه ،
وكنت أحسبها زخرفاً جميلاً حتى وقعت عليك عيناى ، فعلمت أنها حقيقة
رهيبة ، وعلمت حقيقة أجل ، وهى أن الجمال كالقضاء يياغث الإنسان بما لا
يقع له فى حسابان .

فشبكت كفها ، وقالت :

— مولاي .. ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك ، أما أن تحمل
صندلى .. رباه ماذا أقول ؟ .. لقد فقدت جنانى . غفرانك يا مولاي ! ويحى
نسيت نفسى يا مولاي ، وتركتك واقفا .

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه ، ثم انحنت باحترام . ولكنه اختار ديوانا
وثيرا ، وجلس عليه ، وقال لها :

— ادنى منى يا رادوييس . اجلسى ها هنا ..

فدنت الغانية حتى سارت على بعد قريب ، ووقفت تغالب اضطرابها
وذ هولها . فأجلسها بيده ، وأمسك بمعصمها — وكانت أول لمسة — وأجلسها
إلى جانبه .. وكان قلبها يخفق بشدة ، فوضعت الصندل جانبا ، وخفضت
عينها ، ونسيت أنها رادوييس المعبودة ، التى تعبت بالقلوب والرجال كيف
شاء لها العيب . غلبتها المفاجأة ، وهز نفسها الشخص المعبود ، كأنه ضوء
متوهج سلط على عينها بغتة ، فانكملت كعذراء تتصدى لرجلها أول مرة ..
إلا أن جمالها الرائع خاض المعركة — بغير علم منها — ثابت الجنان ، عظيم الثقة ،
وسلط شعاعه السحرى على عيني الملك الداهشتين كما تسلط الشمس شعاعها
الفضى على نائم النبت ، فيصحو ويرف رفيفا فاتنا . كان جمال رادوييس قاهرا
نفاذا ، يحرق من يدنو منه ، ويبعث فى نفسه الجنون ، ويملأ صدره برغبة لا
تروى ولا تشبع ..

كانا فى تلك الليلة الخالدة — رادوييس المتعثرة فى ارتباكها والملك التائه فى
الحسن — أحوج بشرين إلى رحمة الآلهة .

وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

— كيف لا تسألينى عن وقوع صندلك بين يدى ؟

فساورها القلق ، وقالت :

— نسيت أمورا أجل يا مولاي .

فابتسم وسألها :

— كيف ضاع منك ؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها ، فقالت :

— خطفه النسر ، وأنا أستحم .

وتهدد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل السقف ، وأغمض عينيه يتخيل ذلك المنظر الفاتن ، إذ رادوبيس تلعب في الماء بجسمها العارى ، والنسر يهوى من عل فيخطف صندلها . وسمعت الغانية رفيف أنفاسه ، وأحست بها تلفح خدها ، وعاد إلى النظر إلى وجهها ، وقال بوجد :

— خطفه النسر وطار به إلى . يا للقصة الفاتنة !. ولكنى أتساءل منكرا :

أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض إلى الرب هذا النسر الكريم ؟.. ياله من فرض محزن ! ومع هذا فإني أحس في أعماقي بأنه كبر على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى ، فرماني بالصندل لأنتبه من غفلتى .

فقالت كالدهشة :

— هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاي ؟

— نعم يا رادوبيس .. هذه هي القصة الفاتنة .

— يا لها من مصادفة كالسحر !

— أتقولين مصادفة يا رادوبيس .. وما المصادفة ؟.. إنها قضاء مقنع !.

فتنهدت وقالت :

— صدقت يا مولاي .. إنها كالعاقل المتغابي .

— سأعلن رغبتى على الملأ ألا يعرض إنسان من شعبي لنسر بسوء !.

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة ، ومضت في ثغرها كتعويذة سحرية .

وأحس الملك بهيام يملك قلبه ، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم في

وجد بين ، وقال وهو يتهدد :

— إنه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأثمن ما فى حياتى .. رادوبيس ! كم

أنت جميلة ! هذا حسن يزرى بأحلامي جميعا .

وسرت المرأة لقوله ، كأنها تسمعه لأول مرة في حياتها ، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادته هياما ، فقال وكأنه يضرع ويشكو :

— كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبي .

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق ، وهمس :

— رادوبيس .. أريد أن أنغمر في أنفاسك .

فبسطت له وجهها ، وأسبلت جفניה . وجعل يهوى بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق ، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله ، وسها إلى عينيها السوداوين حتى صارت الدنيا ظلاما ، وأذهله الهوى ، فاستولى عليه تخدير ساحر ، حتى تنبه على تنهدا العميق ، فاعتدل قليلا ، وهمس في أذنها قائلا :

— رادوبيس ! إني أقرأ أحيانا مصري ، سيكون الجنون منذ الساعة

شعاري .

وأسندت رأسها إلى كفها إعياء ، وكان قلبها يخفق ، فجلسا ساعة صامتين يسعد كلاهما بحديث نفسه ، وما يحدث — وهو لا يدري — إلا صاحبه ، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة ، وقالت له :

— هلا اتبعتنى يا مولاي لتشاهد قصرى ؟

كانت دعوة سعيدة .. ولكنها ذكرت به أمور كاد أن ينساها ، فوجد نفسه مضطرا إلى الاعتذار .. وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة . والقصر وما فيه ملك يمينه .. فقال بأسف :

— ليس الليلة يا رادوبيس .

ونظرت إليه بإنكار ، وسألته :

— ولم يا مولاي ؟

— هناك قوم ينتظروننى منذ ساعات في القصر .

— أى قوم يا مولاي ؟

فضحك الملك ، وقال باستهانة :

— كان ينبغي أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن ، والحق يا رادوبيس أننى منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاق ، وكنت أبيت نية زيارة قصر ك ، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية ، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه . أجلت اجتماعا هاما ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبى .

واستولت الدهشة على رادوبيس ، وتمتت قائلة « مولاي » . وكانت تعجب من استهتاره الذى دفعه إلى تأجيل اجتماع هام من الاجتماعات التى تهرم فيها مصائر المملكة ، لكى يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة .. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا نظير له بين أعمال العشاق ولا شعر الشعراء .

أما الملك فقام بدوره وقال لها :

— أنا ذاهب الآن يا رادوبيس .. واهما .. إن القصر خائق .. إنه سجن مسور بالتقاليد ، ولكننى أمرق منها مروق السهم .. سأترك الآن وجهها حبيبا لألقى وجهها بغیضا ، فهل رأيت أغرب من هذا ؟ .. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة . بل إلى الأبد .

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته ، وشبابه ، جنونه .

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه ، فقالت وهى تتهد : « ذهب .. » ، ولكنه فى الحقيقة لم يذهب ، لو كان ذهب حقا لما استولى عليها ذلك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم واليقظة ، تذكر وتحلم ، والصورتى أمام مخيلتها فى تراحم وتسابق وجنون .

حق لها أن تسعد ، لأنها بلغت منتهى المجد ، وتسمنت ذروة البهاء وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض . زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكية ، وصاح بين يديها أن سوطا من اللهب يلهب قلبه الفتى ، فتوجت بهيامه ملكة على عرشى المجد والجمال . وحق لها أن تسعد .. على أنها كانت تسعد سعادة المجد ! ، ومال رأسها قليلا ، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مست شفتاها فارسة .. ولم تنفرد بأحلامها طويلا إذ دخلت شيث . وقالت :

— مولاتى .. أتتوين أن تنامى هنا ؟

ولم ترد عليها .. وحملت الصندل ، وقامت فى كسل وسارت تتهاذى صوب مخدعها . وتشجعت شيث بسكرتها ، فقالت بلهجة حزينة :

— وأأسفاه يا مولاتى .. إن هذا البهو الجميل الذى ألف الطرب واللهو ، يقفر

الليلة لأول مرة من السمار والعشاق .. ولعله يتحير مثل سائلا : « أين الغناء ؟ أين الرقص ؟ أين الحب .. هى مشيئتك يا مولاتى .. » .

ولم تبالها الغانية ، وصعدت أدراج السلم فى صمت وسكون ، فظنت شيث

أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :

— لشد ما وجموا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك .. وتبادلوا نظرات الحسرة

والحزن العميق ، وتراجعوا في ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس .
ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت إلى مخدعها الجميل ، وهرعت إلى مرآتها
وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها : « إذا
كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة معجزة أيضا » وغمرتها نشوة
سعادة ، فالتفتت إلى شيث وسألته :

— من حسبت الرجل الذى جاء لمقابلتى ؟.

— من هو يا مولاتى ؟. إننى لم أره قبل اليوم . هو شاب غريب ، ولكن لا
جدال أنه من النبلاء ، مليح رهيب جسور ، يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع
شديد ، ولصوته لهجة الأمر ، ولولا خوفى لقلت : إنه لا يخلو من ..

— من ماذا ؟.

— من جنون ..

— حذار ..

— مولاتى .. مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعا الذين
طردتهم اليوم .

— حاذرى أن تندمى حيث لا ينفع الندم .

فقالت شيث داهشة :

— هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آنى ؟

فقالت بزهو :

— إنه فرعون يا حمقاء ..

وحملت المرأة في وجه مولاتها . وتدلّت شفتها السفلى ، ولم تنطق .

فقالت الغانية ضاحكة :

— هو فرعون يا شيث .. فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ، إياك

والثروة .. اذهبي الآن ، اغربى عن وجهى . فإنى أريد أن أدخلو بنفسى ..

وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة ، وكان الليل جثم في

مجثمه وأرخصى على الكون جناحيه ، وبدت طلائع النجوم فى كبد السماء ،
وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار فى الحديقة ، وتبدى الليل فاتنا ،
فتذوقت جماله وأحست لأول مرة بأن انفرادها فيه عذب ، بل أعذب من
اجتماعها بالعشاق جميعا .. وأصغت فى سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها ..
وبعثت الذكريات ، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد ، خفق فيه قلبها خفقة
طائشة ، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيعة ، وتغدو للأنفس قضاء لا
يرد . كانت ريفية حسناء ، برزت من بين أوراق الريف المخضلة ، كما تبرز
الوردة اليانعة ، وكان نوتيا عذب الصوت نحاسى الساقين ، ولا تذكر أنها
سلمت لإنسان بداعى قلبها سواه ، وشهدت شواطئ بيعة مشهدا لم تسعد بمثله
فى الأرض . ودعاها إلى سفينه فلبت دعاءه ، وحملتها الأمواج من بيعة إلى أقصى
الجنوب ، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا . واختفى النوتى
من حياتها فجأة ، ولم تدر إن كان ضل ، أو فر ، أو مات ، ووجدت نفسها
وحيدة . كلاً لم تكن وحيدة ، كان معها جمالها فلم تتشرد ، والتقطها كهل ذو
لحية طويلة ، وقلب ضعيف . وطابت لها الحياة وأثرت بموته ، وتوهج نورها
فخطف الأبصار ، فأنجذبوا إليها كالفراش المجنون ، وألقوا تحت قدميها
الصغيرتين قلبا فتية ، وأموالا لا تعد ، وبايعوها ملكة للقلوب فى قصر بيعة ،
فكانت رادوبيس .. يا للذكريات !

كيف مات قلبها بعد ذلك ؟ .. هل أماته الحزن ، أم الغرور ، أم المجد ؟ ..
كانت تصغى إلى حديث الحب بأذن صماء ، وقلب مغلق ، فكان منتهى ما
يطمع فيه عاشق مدله مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد .
استسلمت للذكريات طويلا ، وكأنما استدعتها لتربطها بأعجب أيام
حياتها ، وأسعد أيامها !

ومضى الوقت وهى لا تحس به إن كانت ساعات أم دقائق ، حتى انتهت على
وقع أقدام ، فالتفت منزعة ، فرأت بابها يفتح ، ودخلت شيث لاهثة

وقالت :

— مولاتى .. إنه يتبعنى .. ها هو ذا .

ورأته يدخل مطمئنا كأنه يدخل مخدعه الخاص ، فغمرتها دهشة ممزوجة

بفرح وصاحت :

— مولائى ..

وانسلت شيث خارجا ، وأغلقت الباب ، وألقى الملك نظرة على المخدع

الجميل ، وقال ضاحكا :

— هل أطلب المغفرة لتهجمى هذا ؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة ، وقالت :

— المخدع وصاحبه لك يا مولائى .

فضحك ضحكته الفاتنة . كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة ،

وأمسك بمرفقها ، وسار بها إلى الديوان وأجلسها ، وجلس إلى جانبها ، وقال :

— كنت أخشى أن يسبقنى النوم إليك .

— النوم .. النوم لا يهتدى إلى أمثال هذه الليلة ، يحسبها من فرط نور السعادة

نهارا .

فتبدى الجد على وجهه وقال :

— إذا احترقنا معا ..

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها فى مثل هذه اليقظة والحياة ، ولم

تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الإنسان البديع ، فقد صدق ، إنها تحترق ،

ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجرى فيهما الصفاء

والمودة .. ثم قالت :

— لم يدر بخلدى أنك تعود هذه الليلة ..

— ولا دار لى بخلد ، ولكننى رأيت الاجتماع ثقيلًا مرهقا ، وأعيانى تركيز

فكرى ، وابستخفنى الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت

عددا يسيرا ، وأصغيت إليه بعقل مشئت ، ثم ضقت بكل شيء ذرعا ، فقلت له إلى الغد ، ولم أكن أفكر في العودة ، ولكنى رغبت في أن أدخلو بنفسي للحديث والمناجاة .. فلما خلوت إلى نفسي وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسي قائلا : لماذا أصبر إلى الغد ؟ .. وليس من عادتي أن أقاوم عاطفة ، فما عمت أن وجدتني ها هنا بين يديك ..

يا لها من عادة سعيدة .. إنها تجنى أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب .. وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

— رادوبيس .. ما أجمل هذا الاسم ، فإن له وقع الموسيقى في أذني ومعنى الحب في قلبي . وهذا الحب شيء عجب ، كيف يصرع رجلا تعمز لياليه الحسان من كل لون وطعم ؟ .. إنه حقا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب ؟ إنه قلق معذب يسكن في قلبي ، وأنشودة إلهية ترتل في أسمى مكان من روحي . إنه حنين موجه — إنه أنت . أنت حالة في كل آية من آيات الدنيا والنفس ، انظري إلى هيكل هذا الشديد ، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء .. إنها تبادله هذا الشعور ، وتحس بصدقه ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين ، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلهية ، وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس ، وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة ، فما عثم أن تmast أهدابهما ، فسألها برقة :

— لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس ؟

وفتحت عينيها الجميلتين ، ونظرت إليه بوجد وحنان ، وقالت :
— ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي ؟ . فطالما كان الكلام يتدفق على لساني ، وقلبي ميت ، أما الآن ، فقلبي يبعث حيا ، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس ، وتحيا بها .

فابتسم إليها سعيدا ، وقال :

— اختطفني هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء .

فقلت وهى تبادلته الابتسام :

— واختطفنى من وسط دنيا عامرة بالرجال .

— كنت أخطب فى دنياى كالحائر ، وأنت منى على بعد ذراع ، وأأسفاه ..

كان ينبغى أن أعرفك من أعوام .

— كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا .

فشد على قبضة يده بحماس ، وقال :

— نعم يا رادوبيس ، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر فى

لوحها أجمل قصة حب ، وما أشك فى أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد ،

وما ينبغى لنا بعد اليوم أن نفترق . فأجمل ما فى الدنيا أن نرى معا .

فتهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

— نعم يا مولاي ، فلا ينبغى أن نفترق بعد اليوم ، وهاك صدرى حقلا

ناضرا ارتع فيه أنى شئت .

فبسط كفها بين يديه ، وضغط عليها بحنو ، وقال :

— تعالى إلى يا رادوبيس ، ليغلق هذا القصر على الماضى الغادر ، فأبني أحس

بأن كل يوم ضاع من حياتى قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت إلى سعادتى .

كانت كالخمورة ، ولكن ساورها القلق ، فسألته :

— أيريدنى مولاي على أن أنتقل إلى حريمه ؟

فهز رأسه قائلا :

— ستنزلين بأعز مكان به ..

فخفضت عينيها ووجمت ، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها ، ووضع أنامل

يمينه تحت ذقنها الصغير ، ورفع وجهها إليه وسألها :

— مالك ؟

فسألته بعد تردد :

— أمر هو يا مولاي ؟ .

فانقبض صدره لذكر الأمر ، وقال :

— أمر ؟.. كلا يا رادوبيس ، إن لغة الأمر لا تجدى مع الحب ، وإني ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتى !.. وأعود واحدا من البشر يشق طريقه بلا عون ، ويلقى حظه بغير محابة ، انسى فرعون مليا ، وأخبرينى ألا ترغبن فى اللحاق بى ؟

وخشيت أن يسىء فهم وجومها وتردها ، فقالت بلهجة صادقة :
— أرغب فىك يا مولاي رغبتى فى الحياة ، بل الحقيقة أجمل من هذا .
الحقيقة أنى لم أحب الحياة حبا صادقا إلا منذ أحببتك ، وأن قيمتها فى نظرى أنها تشعرنى بحبك ، وتسعد حواسى بوجودك ، أليس للمحبين غريزة تصدقهم القول ؟.. سلها عن قلب رادوبيس يا مولاي تعد على أذنك ما جرى على لسانى ، ولكنى أتساءل حيرى : لماذا أغلق أبوابه إلى الأبد ؟.. إنه أنا بالذات يا مولاي ، فينبغى أن تحبه كما تحبنى . لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لى ، إما صورتي أو اسمى أو تمثال لى . كيف لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار إليك برسالة الحب الخالدة ؟.. كيف لى بهجره وقد خفق قلبى فيه بالحب لأول مرة ؟.. كيف لى بهجره يا مولاي وقد زرتنى فيه بذاتك العالية ؟.. حرى بأى مكان تطؤه قدماك أن يصير — كقلبى — لك وحدك ، ولا يغلق أبوابه أبدا ..
كان يصغنى إليها بحواسه المرفهة ، وقلبه المشبوب الجامع ، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها . ثم لمس بحنو جدائل شعرها الفاحم ، واحتواها بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة رطبت برحيق عذب ، وقال لها :

— رادوبيس .. أيتها الحب الممتزج بروحى .. لن يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته ، سيبقى ما بقينا مهذا للحب ، وجنة للهوى ، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات ، سأجعل منه محرابا للحب ، وأصير أرضه وجدرانه ذهباً مصفى .

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة ، وقالت تناجيه :

— لتكن مشيئتك يا مولاي ، وإني أقسم بحبي لأذهبن الغداة إلى معبد الرب
سوتيس ، وأغسل جسدي بالزيت المقدس ، لأرحض نفسي من الماضي
الشقي ، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد كزهرة تشق الأكام وتتصدى
لشعاع الشمس .

فوضع يدها على قلبه ، ونظر إلى عينيها وقال :

— رادويس أنا اليوم سعيد ، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتي ، حياتي
وحسبي بها من حياة .. انظري إلى ، فسواد عينيك أشهى لقلبي من نور
الدنيا ..

في تلك الليلة نامت جزيرة بيخة ، وسهر الحب بقصرها الأبيض ، حتى
انحسر في ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحاملة ..

ظل الحب

استيقظت في الضحى ، وكان الجو حارا ، والشمس ترسل أشعتها المتوهجة ، فبث في الدنيا نورا ونارا ، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن ، وشعرها مبعثرا ، منه خصلات نائمة على صدرها ، وخصلات ملقاة على الوسادة .

طوبى ليقظة تهيج في القلب أجمل الذكريات .. كان قلبها مرتعا للغبطة ، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار ، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح ، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما تكشف عالما جديدا حميلا ، أو كأنها تبعث خلقا جديدا ..

ومالت في نومتها إلى جانبها ، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة ، فرأت آثار رأسه عليها واضحا ، فاستل من عينيها منتهى العطف والحنان ، وأدنت رأسها منه ولثمته ، وقد تمتمت بفرح : ما أجمل كل شيء .. وما أسعدني بكل شيء .. ثم جلست في فراشها هنيئة وغادرتة — كما كانت تغادره كل صباح — نشطة مرحة كملحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة ، واستحمت بالماء البارد ، وتعطرت بماء الزهر ، وارتدت ثيابها المبخرة ثم عادت إلى مائدة الطعام ، وتناولت إفطارها المكون من بيض وفطير ، وشربت كوبا من اللبن الحليب ، وكأسا من الجعة ..

واستقلت سفينتها إلى أبو ، وقصدت إلى معبد الرب سوتيس ، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع ، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل ، وطافت بأرجائه ، وتبركت بجدرانہ وعمده ذات النقوش المقدسة ، وأودعت صندوق النذور ما حادت به يداها ، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى ، وسألتها أن تغسلها بالزيت

المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها ، وترحض قلبها من الغى والعمى .
وقد أحست ، وهى بين يدى الكاهنات المطهرات ، أنها تودع بلا رحمة قبر القناء
جسد رادوييس الغانية اللعوب ، التى كانت تعبث بالرجال وتهلك النفوس ،
وترقص على أشلاء الضحايا ، وذوب القلوب ، وأن دما جديدا يجرى فى
عروقها ، فينبض فى قلبها وحواسها الطمأنينة ، والسعادة ، والطهر ، ثم صلت
صلاة حارة ، جاثية على ركبتها مغرورة العينين ، وضرعت فى الختام إلى الرب
أن يبارك حبها وحياتها الجديدة . وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنها طائر
يرف بجناحيه فى سماء صافية ، واستقبلتها شيث فرحة متهللة ، تكاد تطير من
الفرح ، وقالت :

— مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتى . ألا تعلمين من أتى قصرنا فى
غيتك ..

فخفق قلبها باضطراب فرح ، وصاحت :

— من ؟ ..

فقلت الجارية :

— أتى رجال من أمهر الصناع بمصر مبعوثين من قبل فرعون ، فشاهدوا
الحجرات والأرواق والردهات ، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيدا لصنع
أثاث جديد .

— حقا ..

— نعم يا مولاتى ، وسيغدو هذا القصر عما قليل أعجوبة الزمان ، فيالها من
صفقة رابحة ! ..

وتحيرت رادوييس فيما تعنيه المرأة ، ثم خطر لها خاطر ، فقطبت جبينها
وسألتها :

— أى صفقة تعنين يا شيث ؟

فغمزت المرأة بعينيها ، وقالت :

- صفقة الغرام الجديد ، وحق الأرباب إن مولاي ليزن أمة من الأغنياء ،
ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب ..
وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار ، وصاحت بها :
— خسئت يا امرأة .. أنا لا أتجر الآن ..
— ويل لى .. لو كانت لدى شجاعة يا مولاتى لسألتك عما تفعلين إذا ؟
فتنهدت رادوبيس وقالت :
— أمسكى عن هذرك ، ألا ترين أنى أجند فى الأمر جدا ؟
فحملت الجارية فى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم قالت :
— باركتك الآلهة يا مولاتى .. إنى حائرة وأسائل نفسى : لماذا تجد مولاتى
جدا ؟ ..
فتنهدت رادوبيس مرة أخرى ، واستلقت على الديوان الوثير ، وقالت
بصوت خافت :
— أحببت يا شيث ..
فضربت الجارية على صدرها بيدها ، وقالت بفزع ودهشة :
— أحببت يا مولاتى ! ..
— نعم أحببت ، مالك تدهشين ؟
— معذرة يا مولاتى ، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى لك على لسان من
قبل .. فكيف جاء ؟
فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالة :
— ما الداعى إلى العجب ؟ امرأة تحب ، يا لها من حقيقة مبتذلة .
فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها ، وقالت :
— أما هنا فلا ، عهدى به حصنا منيعا ، فكيف أخذ ؟ .. ألا بالله قولى لى ..
وبدت فى عينيها الأحلام ، وبعثت الذكرى فى نفسها شعورا فياضا ، فقالت
بصوت كالهمس :

— أحببت يا شيث ، والحب شيء عجيب ، فى أى دقيقة من الزمان طرق
الحب قلبى ؟ كيف تسلل إلى أعماق نفسى ؟ لا علم لى بذلك ، وإنه ليحيرنى
حيرة شديدة ، ولكنى عرفت الحقيقة بقلبى ، لقد خفق بشدة وعنف ، خفق
لرؤية وجهه ، وخفق لسماع صوته ، وما كان عهدى به أن يخفق لشيء من هذا ،
فوسوس لى صوت خفى بأن هذا الرجل صاحب هذا القلب دون منازع ،
فغمرنى إحساس قوى عنيف عذب أليم ، وشعرت شعورا وثابا بأنه ينبغى أن
يكون لى كقلبى ، وأن أكون له كنفسه ، ولم أعد أتصور أن تطيب حياة ، ويلذ
وجود بغير هذا الامتزاج ..

فقلت شيث لاهثة :

— يا للحيرة يا مولاتى ..

— نعم يا شيث ، طالما تمتعت بالحرية المطلقة ، كنت أتخذ مجلسى على ربوة
عالية وأسرح ناظرى فى عالم واسع غريب ، وأسامر عشرات الرجال ، وأتذوق
متع الأحاديث ، وأتملى آيات الفن ، وألهو بالمجون والغناء ، ولكن كان يرين على
صدرى سأم لا شفاء له ، وتغشى نفسى وحشة لا طمأنينة معها . الآن يا شيث
ضاقت أمانى ، وانحصرت فى رجل واحد هو مولاتى ، وهو دنياى . ولكن دببت
حياة دافقة طردت من طريق حياتى السأم والوحشة ، وأفاضت عليه نورا
وبهجة ، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة ، ووجدتها فى رجلى الحبيب .. أرايت
ما هو الحب يا شيث ؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة ، وقالت :

— يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى .. ولعله أعذب من الحياة
نفسها ! وإنى أسائل نفسى عما أحس به من الحب ، إن الحب كالجوع ، والرجل
كالطعام .. وإنى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة ..
وحسبى هذا ..

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة كرنين الوتر ، ثم قامت واقفة ، وذهبت

إلى شرفة تطل على الحديقة ، وأمرت شيث أن تأتي لها بقيثارة ، فأحست برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء ، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا .. وغابت شيث برهة ، ثم عادت حاملة القيثارة ، وأسلمتها بين يدي مولاتها ، وهى تقول :

— هل يزعجك أن تؤجلى اللهو إلى حين ؟
فسألتها ببساطة ، وهى تتناول القيثارة :
— ولمه ؟ ..

طلب إلى أحد العبيد أن أخبرك بأن إنسانا يطلب الإذن بمقابلتك .
فلاح الاستياء على وجهها ، وسألها بجفاء :
— ألا يعرف من هو ؟ ..

— يقول إنه .. يزعم أنه مرسل من قبل الرسام هنفر .
وتذكرت ما قاله لها الرسام هنفر أول أمس عن تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة
الحجرة الصيفية ، فقالت لشيث :
— إيتى به إلى ..

وأحست بمضايقة واستياء ، وأمسكت القيثارة بحدة ، ولعبت أناملها
بالأوتار فى خفة وغضب ، لعبا لا وحدة بين أجزائه .
وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر ، وقد أحنى رأسه فى
إجلال ، وقال بصوت رقيق :
— أسعد الرب يومك يا سيدتى ..

فوضعت القيثارة جانبا ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة ؛ كان غلاما
معتدل القامة ، نحيف القد ، أسمر الوجه ، حسن القسمات ، واسع العينين إلى
درجة تلفت النظر ، تلوح فيهما آى الصفاء والسذاجة . فأخذتها حداثة سنه ،
وصفاء عينيه ، وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقا أن يتم عمل المثال العظيم
هنفر ؟ وقد أحست بارتياح إلى رؤيته ، أذهب عنها موجة الاستياء التى

اجتاحتها ، وسألته :

— أنت تلميذ المثل هنفر الذى اختارك لزخرفة الحجرة الصيفية ؟ .
فقال الشاب بارتباك ظاهر ، وكان بصره يتردد بين وجه رادوبيس وأرض
الشرفة :

— نعم يا سيدتى .

— حسن ، وما اسمك ؟ ..

— بنامون .. بنامون بن بشار .

— بنامون .. كم تبلغ من العمر يا بنامون ، فأنى أراك صغيرا ؟ .

فتورد خداه وقال :

— أبلغ الثامنة عشرة فى مسرى القادم .

— أراك تبالغ فى التقدير .

فقال الشاب بإخلاص :

— كلا يا سيدتى إن ما أقول هو الحق .

— يا لك من طفل يا بنامون ..

واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا ، وكأنه خشى أن تعرض عنه

لحادثة سنه . وقرأت مخاوفه ، فقالت مبتسمة :

— لا تقلق فأنى أعلم أن هبة المثل فى يده لا فى عمره .

فقال بحماس :

— لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .

— هل سبق أن قمت بعمل هام ؟

— نعم يا سيدتى ، زخرفت جانبا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم

بيجة .

فقالت :

— أنت طفل نابغ يا بنامون .

فتورد خداه ، ولمعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة ، ونادت رادوبيس شيث ، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفية .. وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :

— ينبغي أن تفرغى لى كل يوم .. فى أى وقت تشائين .
فقلت :

— لقد ألفت نفسى أمثال هذه الواجبات .. هل تنحت لى صورة كاملة ؟
— أو نصفية ، وربما اكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأحنى رأسه ، وسار على أثر شيث ، وذكرت المرأة المثل هنفر ، وقالت لنفسها فى سخرية : هل كان يدور له بخلد ، أن القصر الذى سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله ؟ ..

وأحست بارتياح إلى الأثر الذى تركه الشاب الساذج فى نفسها ، ولعله أثار فى قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل ، هى عاطفة الأمومة .. وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذى لم ينبج منه إنسان ، ودعت الرب مخلصه أن يحفظ له طمأنينته وصفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعى الألم واليأس ..

بنامون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى إلى الحجرة الصيفية بالحديقة ،
ووجدت بنامون جالسا إلى منضدة ، باسطا على سطحها ورقة من البردى ،
يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو عليه آى الانهماك والتفكير . ولما أحس
بوجودها ، وضع قلمه وقام واقفا وأحنى رأسه لها ، فحيتته بابتسامة وقالت :
— سأجعل لك هذه الساعة من الصباح ، فهى التى أملكها من يومى
الطويل ..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول :
— شكرا يا سيدتى ، ولكننا لن نبدأ اليوم ، لأننى ما أزال أضع الفكرة العامة
للزخرف .
فقالت :

— آه لقد غررت بى يا غلام ..
— حاشاى يا سيدتى .. بل عنت لى فكرة رائعة .
فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية ، وقالت :
— ترى هل يستطيع حقا هذا الرأس الصغير ، أن يبدع فكرة رائعة ؟ ..
فتخضب وجهه بالاحمرار ، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن :
— سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك .
— يا للهول .. أخشى أن يأتى بشعا مخيفا ..
— سيبدو جميلا كما هو .

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة ، فحدجته بنظرة فاحصة ، فسارع
الارتباك إليه ، وتحيرت عيناه الصافيتان ، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتى

استقر بصرها على البركة خلل الباب الشرقى للحجرة .. يا له من شاب رقيق كالعذراء الساذجة ، إنه يهيج في صدرها حنانا غريبا ، ويوقظ الأمومة النائمة في سراديب نفسها ، والتفتت إليه ، فرأته منكبا على عمله ، ولكنه لم يكن متفرغا له ، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك مورد الخدين ، أليس ينبغي أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها ؟ ، ولكنها أحست برغبة في التحدث معه ، فأطاعت رغبتها وسألته :

— أمن أهل الجنوب أنت ؟

رفع الشاب رأسه ، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج ، وقال :

— أنا من أمبوس يا سيدتى .

— أمبوس ؟ .. أنت من شمال الجنوب إذا ، ولكن ما الذى جمع بينك وبين المثال هنفر ، وهو من أهل بلاق ؟

— كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى بالفن أرسلنى إليه ووصاه بى .

— وهل والدك من طائفة الفنانين ؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال :

— كلا .. كان والدى كبير أطباء أمبوس ، وكان نابغة فى الكيمياء والتحنيط ، وقد تعددت اكتشافاته فى طرائق التحنيط وتركيبات السموم .. ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

— ولماذا كان يصنع السموم ؟ ..

فقال الشاب بلهجة حزينة :

— كان يستعملها كأدوية ناجعة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها وأسفاه كانت السبب فى القضاء على حياته .

فسأله باهتمام شديد :

— كيف كان ذلك يا بنامون ؟

— أذكر يا سيدتى أن والدى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله :
« إنه أفتك السموم جميعا ، وأنه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة » وسماه
لذلك السم السعيد ، وفى ليلة أسيفة قضى الليل كله فى عمله يشتغل بلا
انقطاع ، وفى الصباح وجد ممددا على مقعده فاقد الروح ، وإلى جانبه قارورة
سم من ذاك السم الفاتك مفضوضة السداد ..
— يا للغرابة .. هل أنتحر ؟

— من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك ، ولكن ما الذى دفعه إلى
الهلاك ؟ .. لقد دفن سره معه ، واعتقدنا جميعا أن روحا شيطانيا تلبسه ، فأضلته
الحكمة فأتى فعلته فى حالة إعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعا ..
واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره . فأسفت رادويس على
إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته :
— وهل أمك على قيد الحياة ؟

— نعم يا سيدتى ، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس ؛ أما معمل والدى فلم يلج
بابه إنسان منذ تلك الليلة ..
وعادت المرأة ، وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب وفى سمومه المودعة
المعمل المغلق ..

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادئ المنطوى
على الحب والطمأنينة ؛ وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب
للحب ساعة كل صباح . على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق من الطيف .
ومضت الأيام وهى مغرقة فى الهوى وهو منكب على عمله ، وحياة الفن العالية
تدب فى جدران الحجرة الصيفية .

وكان يسرها أن ترقب يده وهى تبت فى الحجرة روحا من جمالها الرائع . وقد
اقتنعت بمقدرته الفائقة ، ووقر فى نفسها أنه سيخلف المثال هنفر فى مستقبل

قريب . وقد سأله يوما وهي تهم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة :

— ألا يلحقك التعب أو السأم ؟

فابتسم الغلام بفخار وقال :

— هيات ..

— كأنك تندفع بقوة شيطان ..

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة ، وقال بهدوء وسداجة :

— بل بقوة الحب ..

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التي توقظ في قلبها أشهى الذكريات ، وتنادى

إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال ، ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم في نفسها .

فاستدرك قائلا :

— ألا تعلمين يا سيدتى أن الفن هوى ؟

— حقا ؟!

فأشار إلى أعلى جبينها الذى وضع رسمه على الجدران ، وقال :

— هاك نفسى خالصة ..

وكانت قد ملكت عواطفها ، فقالت بسخرية :

— يا لها من حجر أصم .

— كانت حجرا قبل أن تلمسها يداى ، أما اليوم فهي نفسى .

فضحكت قائلة :

— يا لك من مغرق فى حب نفسه ..

هكذا قالت وهي توليه ظهرها : ولكن وضع على أثر ذاك اليوم أن نفسه

ليست الشيء الوحيد الذى يحبه ، وكانت تسير فى الحديقة على غير هدى

كخاطر حائر فى دماغ حالم سعيد ، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية ، وساقها

ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية فى غابة الجميز ، وإرسال النظر نخل نافذة

الحجرة وكان وجهها الآخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنان الشاب في أسفل الجدار، وكانت تظنه ينهمك في عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مشتبكتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق في صلاة، إلا أن رأسه كان متجها إلى ما تم نحتة من رأسها وجبينها..

ودفعتها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مذعورة، ورأته يقوم واقفا كأنه ينفتل من صلاته، ورأته يمسح عينيه بطرف كفه الواسع.. فخفق قلبها، ولبثت برهة لا تبدى حراكا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرقة البط السابح على سطح الماء أو طنينه، ثم التفتت إلى الورا وانحدرت مسرعة في طريقها إلى القصر..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمة به، وكانت تطالع معناه في عينيه الصافيتين كلما رنا بهما إليها، وما كانت تستطيع دفع الشر، فهل تباعد بينه وبينها؟ هل تغلق باب القصر في وجهه بأبة علة تعتل بها عليه.. لكنها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وباتت في حيرة من أمرها.

على أن حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شيء في الوجود بقادر على أن يستبد بوجدانها أكثر من ساعة عابرة، لأن عواطفها وإحساساتها جميعا كانت نهب الحب، وملك يدي حبيب طموح لا يقنع من الحب بشيء.. كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرا قصره ودنياه، غير آسف ولا مردد، فكانا يفران معا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم في أيامهما تلك أن تكتشف رادوبيس في الضحى بعد توديعه لها، أنها لم تسأله أعينها يؤثر بالشوق أم شفتيها، أو أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكر راجعا لينفى عن حياته أتفه أسباب الهموم.

كانت أياما لا نظير لها في الأيام.

خنوم حتب

وكان الزمن الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة ، يتجههم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب . كان الرجل يقبع فى دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين ، ويستمع إلى ما يقال بأذان مرهفة وقلب حزين ، ثم يستوصى بالصبر ما أمكن الصبر .

وكان الأمر الذى أصدره الملك بتزع أراضى المعابد ينغص عليه صفو حياته ، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية ، لأن جمهور الكهنة قابلوه بفزع وألم ، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب ..

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل ، وأنه نادرا ما يحظى بمقابلته والتحدث إليه فى أمور المملكة . وذاع على أثر ذلك أن فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة . وأنه يبيت ليلاليه فى قصرها . ثم شوهد الصناع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات ، ورئيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمان الجواهر . وتهامس الكبراء بأن قصر رادوبيس يتحول إلى مثوى من الذهب والفضة والمرجان ، وأن أركانه تشهد هوى جامحا يتقاضى مصر أموالا لا تعد ولا تحصى ..

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين ، وقد نفذ صبره ، وضاق بجموده ، ففكر فى الأمر طويلا ، وعزم على أن يندل ما فى وسعه ليحول الأمور عن السبيل التى تندفع فيه ؛ فأرسل رسولا من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاء فيها إلى موافاته بدار الحكومة . وسارع كبير الحجاب إلى مقابله ، وصافحه الوزير ، وقال له :

— إني أشكرك أيها المبجل سوفخاتب على تلييتك لرجائي .
فأخني كبير الحجاب رأسه وقال :

— إني لا أتوانى عن القيام بواجبي المقدس في خدمة مولاي .
وجلس الرجلان وجها لوجه ، وكان خنوم حتب صلب الإرادة حديدي
الأعصاب ، فظل وجهه هادئا رغم ما يجيش ب صدره من الأحران . وقد استمع
إلى قول كبير الحجاب في سكون ، ثم قال :

— أيها المبجل سوفخاتب ، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص .
— هذا حق يا صاحب القداسة .

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير ، فقال :
— ولكن ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هذه الأيام ، وبت أتعثر
بالمتاعب والمشكلات . وقد رأيت — وأحسبني في رأيي من الصادقين — أن
مقابلة بيني وبينك لا شك تأتي بخير كثير .

فقال سوفخاتب :

— إنه ليسعدني وحق الأرباب أن تصدق في فراستك يا صاحب القداسة .
فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بلهجة تنم على الحكمة :
— يجدر بنا أن نستوصي بالصراحة . فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية
الصدق والإخلاص .

فأمن سوفخاتب على قوله قائلا :

— صدق فيلسوفنا قاقمنا .

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره . ثم قال بصوت نم على الحزن :
— يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هذه الأيام .

وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم الصمت ، فاستطرد
قائلا :

— وأنت تعلم أيها المبجل أنني كثيرا ما أطلب تحديد وقت مقابلته ، فيقال لي إن

ذاته المعبودة خارج القصر .

فبادره سوفخاتب قائلا :

— ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته .

فقال الوزير :

— ما قصدت إلى هذا أيها المبجل ، ولكنى أعتقد أن حقى كوزير يخول لى

المثول بين يدى جلالاته بين آونة وأخرى ، لأقوم بواجباتى على الوجه الكامل .

— معذرة يا صاحب القداسة ، ولكنك تحظى بالمثول بين يدى فرعون .

— نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدرنى لا أدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته

العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة .

فحدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

— لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

فأتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

— هو ذلك يا سيدى .

فقال سوفخاتب بسرعة :

— إن فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع . لأن جلالاته قال

فيه كلمته الأخيرة .

— إن السياسة لا تعرف كلمة أخيرة .

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة :

— هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه .

— أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا ؟

واستاء سوفخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه ، بعد أن

أعلن له أباه ، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك :

— سأقف عند كلمة مولاي لا أتعداها .

— إن أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة .

واشتد استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول ، وثارت كرامته ثورة مكتومة ، فقال بشدة :

— إني أعرف واجبي يا صاحب القداسة ، ولكنى لا أسأل عنه إلا أمام ضميرى .

فتنهذ خنوم حتب يائسا ، ثم قال فى هدوء وتسليم :

— إن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل ، وما داخلنى شك قط فى إخلاصك أو حكمتك ، ولعل هذا ما دعانى إلى الاسترشاد برأيك . أما وإنك ترى أن هذا لا يتفق وإخلاصك فلا يسعنى إلا العدول عنك آسفا ، وليس لدى الآن لى رجاء واحد .

فقال سوفخاتب :

— تفضل يا صاحب القداسة .

— إنى أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة الملكة ، رجائى بالتشرف بين يديها اليوم .

وأخذ سوفخاتب ، ونظر إلى محدثه نظرة دالة على الدهشة ، لأنه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنه لم يكن متوقعه ، فاستولى الارتباك على الحاجب ، أما خنوم حتب فقال بلهجة دلت على العزم :

— إنى أقدم هذا الرجاء بصفتى رئيس وزراء المملكة المصرية .

فقال سوفخاتب بقلق :

— ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علما برغبتك ؟

— كلا أيها المبجل ، إنى أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التى تعترض سبيلى ، فلا تضيع فرصة ذهبية ، عسى أن أخدم بها فمليكى ووطنى .

فلم يسع سوفخاتب إلا أن يقول :

— سأرفع رجاءك إلى جلالته فى الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده للمصافحة :
— سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر وهو يودعه :
— كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه بشدة ، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع الحجرة ويعمل فكره . وكان لا يشك في إخلاص سوفخاتب ، ولكنه كان قليل الثقة في شجاعته وعزيمته . وقد دعاه وهو يائس منه . ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلقلًا : هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها ! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته ؟ . إن الملكة لا يستهان بها ، وعسى أن تحل العقدة المستحكمة بذكائها ، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك . ولا شك أن الملكة تدرك سوء تصرف الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهي ملكة مشهود لها بالفطنة ، وهي زوجة تشارك الزوجات أفراحهن وأحزانهن . أليس من المحزن أن تنزع أملاك المعابد ليبذل ريعها وخصيصا تحت أقدام راقصة ؟

إن الذهب يتدفق إلى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه ، ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار في صنع أثاثه وحلى ربه وأثوابها . وأين .. أين فرعون .. هجر زوجته وحريمه ووزرائه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة ! وتنهى الرجل في حزن عميق ، وتتم قائلا :

— ما ينبغي لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو ..

وراح في تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، إذ دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن . وانتظر الرجل في لهفة ، وقد اضطربت شفتاه في تلك اللحظة الفاصلة على قوة إرادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ، وأحنى رأسه محييا ، وقال باقتضاب :

— إن حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة .

وحمل من قوره إضمامة الالتماسات ، وذهب إلى عجلته التي طارت به إلى القصر ، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول بهذه السرعة ، فلا شك أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من الآلام في وحدتها الموحشة ، ولا شك أنها تتصير على الإهانة والحرمان قابعة في سياج قاس من الكبرياء والصمت ، إنه يحس أنها من رأيه ، وأنها ترى الأمور بالعين التي يراها الكهنة والعقلاء جميعا . وعلى أية حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر : وقصد تورا إلى جناح الملكة ، ولم يلبث أن دعى إلى مقابلة جلالته في بهو استقبالها الرسمي . وأدخل البهو فاتحه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها الملكي ، وقال بإجلاء عميق :

— السلام على مولاتي نور الشمس وبهاء القمر .

فقلت الملكة بصوت هادئ :

— السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .

واستقامت قامة الوزير ، وإن ظل رأسه منكسا ، وقال بخشوع :

— إن عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك العالية ، على تفضلتك الكريم باستقباله .

فقلت الملكة بصوتها المترن النبرات :

— إني أعتقد أنك لا ترجو مقابلتى إلا لأمر خطير . فلم أتوان عن استقبالك .

— تعالت حكمة مولاتي ، فالأمر جد خطير ، وما هو إلا صميم السياسة العليا .

وانتظرت الملكة صامته ، فاستجمع الرجل قواه الذاتية ، وقال :

— إني يا صاحبة الجلالة اصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت أخشى ألا أقوم بواجبي بما يرضي ضميري ومولاي فرعون .

وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادئ نظرة سريعة كأنه يمنحن أثر

كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على الاسترسال ، وأدركت الملكة معنى ترده فقالت :

— تكلم أيها الوزير فإني مصغية إليك .

فقال خنوم حتب :

— اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكى بنزع أكثر أملاك المعابد ، فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون ، فهم يعلمون أن أراضى المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفًا ، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطًا .

ولاذ الوزير بالصمت هنيئة ، ثم استدرك قائلاً :

— الكهنة يا مولاتى جنود الملك فى وقت السلم ، والسلم ينشد رجالاً أصلب عوداً من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء . وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبا لو دعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط ، ولكنهم ..

وتردد الرجل عن الكلام لحظة ، ثم استطرد بصوت أشد خفوتا :

— ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق فى غير هذه الوجوه ..

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح ، ولم يداخله شك فى أنها تفهم كل شيء وتعلم كل شيء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم يربدا من أن يتقدم إليها بالالتماسات ، ثم قال :

— هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد ، وقد

رفض مولاي الملك أن ينظر فيها ، فهل لمولاتى أن تطلع عليها ، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية ..

وقبلت الملكة الالتماسات ، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة ، ووقف فى

سكون منكس الرأس . ولم تعده الملكة بشيء ، وما طمع في هذا قط ، ولكنه
تفاءل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف ، فتراجع ويدها على
عينيه .

وفي طريق العودة حادث الوزير نفسه : إن الملكة شديدة الحزن ، وعسى أن
ينفع حزنها قضيتنا العادلة .

نيتسو قريس

غيب الباب الوزير ، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير ، فأسندت رأسها المتوج إلى ظهر العرش ، وأغلقت جفניה ، وتنهدت تنهدا عميقا ، صعد أنفاسا حارة مكتوية بصورة الحزن والألم ، فلشد ما تتصير وتتجلد ، حتى إن أدنى الناس إليها لا يدرى بألسنة اللهب التي تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة .. وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبى الهول .

وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى في الهاوية ، ويذهب فريسة لهواه الجراح ، ويهرع إلى تلك المرأة — التي شاد بحسنها كل لسان — لا يلوى على شيء . وأصابها سهم سام في عزة نفسها وسويداء عواطفها ، ولكنها لم تبد حراكا ، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب ، والملكة ذات التاج ، وأثبتت التجربة أنها كأبيها قوية الشكيمة ، فصهر التاج القلب ، وخنقت الكبرياء الحب ، فانطوت على نفسها الحزينة سجيئة خلف الستائر . وهكذا خسرت المعركة ، وخرجت منها مهيضة الجناح ، وما رمت عن قوسها سهمها واحدا .

وكان الذي يدعو إلى السخرية ، أنهما ما زالا يعدان عروسين . على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش ، فما عثم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال . ولم تكن تأبه لهن ، لأنهن جميعا لم يصرفنه عنها ، ولبثت ملكته وملكة فؤاده . إلى أن ظهرت في أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف ، وملكته عواطفه وعقله جميعا ، واستأثرت به دون زوجه وحرمة

ورجاله المخلصين ، ولعب بها الأمل الخادع حيناً ، ثم أسلمها إلى اليأس ، يأس مكفن بكبرياء فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت .

وكانت تأتي عليها أحيان يثب الجنون في دماؤها ، وتشع عينها نورا خاطفا ، فتهم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير ، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد : كيف يصح لنيثو قريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب ؟ فترد دماؤها ، ويتجمد الحزن في قلبها كالسهم الفاتك في المعدة .

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلبا غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهور الملك ، وها هو ذا خنوم حتب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بينة : إنه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادويس الراقصة ، ويؤمن بقولها المئين من صفوة الحكماء .. أفلا ينبغي أن تخرج عن صمتها ؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمتها . وقد آلمها أن يرتقى الهمس إلى العرش المكين ، وأحست بأن واجبها يقضى عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة ، وهان عليها أن تدوس على كبريائها ، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة في سبيلها سوى مستعينة بالأرباب .

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذي أملته عليها الحكمة والدواعى الباطنة ، إنهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت ، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة وإخلاص .

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكي ، وقطعت بقية نهارها في التفكير والتأمل ، ونامت ليلها نوما متقطعا شديد العذاب ، وانتظرت الضحى على هففة ، وهو الوقت الذي يصحو فيه الملك بعد سهر الليل .. ولم يداخلها التردد ، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح الملك ، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحراس ، فأدوا لها التحية ، وسألت واحدا منهم قائلة :

— أين جلالة الملك .

فأجابها الرجل بإجلال قائلا :

— فى مشواه الخاص يا صاحبة الجلالة .

وسارت بتودة إلى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه ، واجتازت بابها الكبير . وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعاً ، حملت من أى البلهنية والفن ما لا تصدقه العيون . ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها ، وكانت مضت أيام عديدة على آخر لقاء ، فقام واقفا دهشاً ، واستقبلها بابتسامة دلت على الارتباك ، وقال وهو يشير إليها بالجلوس :

— أسعدتك الآلهة يا نيتو قريس .. لو علمت برغبتك فى مقابلتى لبادرت إليك !

فجلست الملكة فى هدوء وهى تخاطب نفسها قائلة .. من أدراه أنى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة ! ثم وجهت إليه الخطاب قائلة :

— لا داعى لإزعاجك أيها الأخ ، فإنى لا أجد غضاضة فى الانتقال إليك ما دام الذى يحركنى واجب .
ولم يلق الملك إلى كلامها بالاً ، لأنه كان يحس بخرج شديد ، وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها ، فقال :

— إنى نخجل يا نيتو قريس .

وعجبت لطرقه هذا الموضوع ، وكان ألمها ألماً خفياً أن تراه فى منتهى السعادة والصحة ، كالزهرة الناضرة ، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها :

— يهون لى كل شىء إلا أن نخجل !

وكان أرق المس يهيجه ، ويرده من حال إلى حال ، فعرض على شفته وقال :

— أيتها الأخت ، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية . وقد يهوى لإحداها فريسة .

وطعنها اعترافه بقسوة فى كبرياتها وعواطفها ، فنسيت حلمها وقالت بصراحة :

— يحزننى وحق الرب ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية .

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم إلى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر . وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغضب الذى جاءت من أجله ، فندمت على قولها ، وقالت له برجاء :
— أنت الذى سقتنى إلى هذا الحديث أيها الأخ ، وما لهذا جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أنى قصدت إليك لأحدثك فى شئون هامة تمس سياسة المملكة التى نجلس على عرشها سويا .

فكظم حنقه ، وسألها بلهجة كالهادئة :

— ما حديثك أيتها الملكة ؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو صالح لغرضها ولكنها لم تر بداً من الكلام ، فقالت باقتضاب :
— أراضى المعابد .

فعبس وجه الملك . وقال بامتناع شديد :

— أتقولين أراضى المعابد ؟ .. أنى أسميها أراضى الكهنة !

— لتكن مشيئتك يا مولاي . فإن تغيير الاسم لا يغير من الأمر شيئاً .

— ألا تعلمين أنى أكره أن يعاد على هذا الاسم ؟

— إنى أحاول ما لا يستطيعه غيرى ، وهدفى الخير والإصلاح .

فhez الملك منكبيه بامتناع وقال :

— وما الذى تريد من قوله أيتها الملكة ؟

فقالت بهدوء :

— لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتى إجابة لرجائه واستمعت ..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، وقال بغضب :

— أهكذا فعل الرجل ؟

فقالت بارتياح :

— نعم .. هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك ؟

فقال وكأنه يزأر :

— بغير شك .. بغير شك .. إنه رجل عنيد ، ويأبى أن ينزل عند إرادتي ، وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها ، وأنه يتربص بى لعله ينجح فى الغائه مستعينا تارة بالرجاء ، وقد رفضت أن أصغى إليه ، وتارة يدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير .. إن الرجل الماكر باندفع كالأعمى فى طريق خصامى .

فها لها ظنه وقالت :

— أنت تسيء الظن بالرجل ، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم الرجال إخلاصا للعرش ، وإنه حكيم يتوخى الوئام .. أليس من الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته فى ظل عطف أجدادنا ؟ .

واحتدم الغيظ فى قلب الملك ، لأنه لم يكن يجد عذرا لإنسان ألا يصدع بأمره فى السر والعلانية ، ولا يحتمل بأية حال أن يرى إنسان غير ما يرى .

فقال ممتعضا بلهجة تشف عن السخرية المريرة :

— أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة .

فقالت باستياء :

— لم يتجه رأيى قط إلى نزع أملاك المعابد ، ولا أجد ضرورة لذلك .

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف :

— أيسئلك أن تزدد ثروتنا ؟

كيف يقول هذا ، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال ؟ .

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المخبئ ، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها

مشاعرها فقالت بانفعال :

— يسيء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعها فى اللهو

العابث .

فاشتد هياج الملك . وقال وهو يشير بيده مهددا :

— ويل للرجل الماكر .. إنه يغرى بالشقاق بيننا ؟
فقلت تتألم وحزن :

— إنك تصورنى لنفسك كطفلة غريرة .

— ويل له .. لقد طلب مقابلة الملكة لبحادث المرأة المستترة فى ثوبها الملكى .
فصاحت به حزينة متألمة قائلة :

— مولاي !

ولكنه استطرد يقول مدفوعا بفضبه الشيطانى :

— لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة فى الوئام .

وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبرياتها . فأظلمت عيناها ، ودوى النبض فى

أذنيها ، وارتجفت أطرافها . ولبت هنيهة لا تستطيع قولاً . ثم قالت :

— أيها الملك ! لا يعرف خنوم حثب عنك شيئاً أجهله فيسعى به إلى ، وما

دمت تظن هذا ، فاعلم بأنى ، أعلم ، كما يعلم الجميع ، أنك غارق فى أحضان

راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر . فهل رأيتنى طوال هذه الفترة طاردتك . أو

ضيقك عليك . أو توسلت إليك ؟ .. واعلم أن الذى يريد أن يخاطب فى المرأة

يرتد خائبا ، ولا يلقي أمامه سوى الملكة نيتوقريس ..

فاحتد قائلاً بعناد :

— ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة .

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة ، وقامت واقفة يائسة ، وقالت بحق شديد :

— أيها الملك .. ليس مما تعير به ملكة أن تغار على زوجها ، ولكن مما يعير به

ملك حقاً أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمى راقصة ، ويعرض عرشه الطاهر

لخوض الخائضين .

قالت الملكة ذلك ، وذهبت لا تلوى على شيء .

واستبد الغضب بالملك ، وأخرجه عن طوره وكان يعد خنوم حثب مسئولا

عن جميع متاعبه ، فاستدعى سوفخاتب وأمره دون أن يمهل به بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره . وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائرا . وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل . وأدخل على الملك الغاضب الحائق ، ونطق الرجل بالتحية — التقليدية ، ولكن فرعون لم يكن يصغى إليه ، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلا :

— ألم آمرك أيها الوزير ألا تعود إلى مناقشة مسألة أراضى المعابد ؟ .
وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التى يسمعها لأول مرة ، وأحس بآماله تنهار دفعة واحدة ، فقال يائسا :

— مولاي .. رأيت من واجبى أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوى طائفة من شعبكم الأمين .
فقال الملك باللهجة قاسية :

— بل أحببت أن تثير غبارا بينى وبين الملكة ، لتصيب تحت ستاره غرضك .

فرجع الرجل يديه بتوسل ، وأراد أن يتكلم فارتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين :

— مولاي .. مولاي ..
فقال الملك الغاضب المهتاج :

— يا خنوم حتب .. أنت تأبى الانصياع لأمرى ، فلن أمنحك ثقتى بعد اليوم .

ووجم الكاهن ، واستولى عليه الجمود ، ثم مال رأسه على صدره فى حزن ، وقال باستسلام :

— مولاي ، يحزننى وحق الأرباب جميعا أن أنسحب من ميدان خدمتكم المجيد ، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا من عبيدكم المخلصين ..

وأحس الملك بارتياح بعد أن أَرْضَى غضبه الكاسر ، وأرسل في طلب سوفخاتب وطاهو ، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان ، فقال لهما الملك في هدوء :

— انتهيت من خنوم حتب .

وساد السكون العميق ، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب ، أما طاهو فبقى جامدا .. وكان الملك يقلب ناظريه في وجهيهما فسألهما :

— ما لكما لا تتكلمان ؟

فقال سوفخاتب :

— إنه لأمر خطير يا مولاي .

— أترأه خطيرا يا سوفخاتب !.. وأنت يا طاهو ؟

وكان طاهو جامدا ميت الإحساس ، لا رجع للحوادث في قلبه ، ولكنه قال :

— إنه عمل يا مولاي من وحي القوة المعبودة .

فابتسم الملك ، وكان سوفخاتب يقلب الأمر على جميع وجوهه ، فقال :

— سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .

فهز فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :

— لا أظن أنه سيلقى بنفسه إلى التهلكة .

واستدرك وقد غير لهجته :

— والآن بماذا تشيران على فيمن يخلفه ؟

وساد الصمت مدة ، ومضى الرجلان يفكران .

وابتسم الملك قائلا :

— إنى أختار سوفخاتب فما رأيكما ؟

فقال طاهو بصدق :

— إن من اخترت يا مولاي هو القوى الأمين .

أما سوفخاتب ، فبدا على وجهه الانزعاج وهم بالكلام ، ولكن سقه فرعون

قائلا :

— هل تتحلى عن مولاك وقت الحاجة إليك ؟

فقال سوفخاتب وهو يتنهد :

— ستجدنى يا مولاي من المخلصين .

الرئيس الجديد

وأحس فرعون في العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يثق به ، وولى وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففى جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس . أما سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتجهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماه دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحب ، ويولي كشحه الهموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم ، وقلوبهم تتبع كهنتهم في كل مكان . وتلفت الوزير حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عونا ومشيرا ، وهما رجلان يختلفان في أمور كثيرة . ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له . فلبى القائد نداءه ، ومد يده إليه ، وشاركه في وحشته وجل متاعبه ، وكافحا معا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب ، وتتجمع في أفقها السحب والزوابع . على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزاياء القبطان المحنك ، كان مخلصا ينضح قلبه بالأمانة والوفاء ، حكيما تنجلي له حقائق الأمور ، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم ، فرأى الخطأ منذ البدء ، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقباه . خشية غضب مولاه أو إيلامه ، وهكذا اطردت الأمور في السبيل الذي شقه الغضب ..

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هام . قالوا إن جنوم حتب ارتحل بغتة إلى منف ، العاصمة الدينية ، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد . واحتارا في السبب الذي من أجله رضى الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال ،

وتوقع سوفخاتب شرا ، ولم يشك في أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال الكهنوت ، وجميعهم ساءخطون لما حل بهم من ضنك ، ولعلمهم بأن الأموال التى ضمن بها عليهم تبعت تحت قدمى راقصة بيجة بغير حساب ، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن ، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب ، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه ..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة ، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرا في أنحاء القطر ، بالتهانى الرسمية من الأقاليم ، أما الكهنة فقد انطروا على صمت رهيب ، حتى قال طاهو : « لقد بدأونا بالتحدى » .

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد ، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلمس من فرعون إعادة النظر في مسألة أراضى المعابد . فكان إجماعا خطير الشأن ، زاد من متاعب سوفخاتب .

وفى يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة ، وجاءه القائد يسعى ، فأشار الوزير إلى كرسى الوزارة ، وهو يتنهد ، وقال :
— يكاد هذا الكرسى أن يميد بى .

فقال طاهو :

— إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسى .

فتنهد الرجل حزنا ، وقال :

— أغرقونى بسيل من الالتماسات .

فسأله القائد باهتمام :

— هل عرضتها على فرعون ؟

— كلا أيها القائد ، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاجئته فى هذا الموضوع ،

وأنا لا أحظى بالمشول بين يديه إلا فى فترات متباعدة جدا .. إنى أشعر بالارتباك والوحدة .

وصمت الرجلان برهة ، وخلا كل منهما إلى أفكاره ، ثم هز سوفخاتب

رأسه متعجبا ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

— إنه للسحر بعينه .

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة ، وبغته المعنى الذى يقصده الرجل ، فسرت فى جسده قشعريرة وامتقع لونه ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من حياته ، وسأله ببساطة كلفته جهدا جهيدا :

— أى سحر تعنى يا صاحب القداسة .

فقال سوفخاتب :

— رادوييس ، أليست تنفث فى فرعون سحرا ، بلى وحق الأرباب ، إن ما

بجلالته لسحرا مينا ..

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم ، وخال أنه يسمع شيئا عجيبا يلمس بوقعه السحري جميع الحواس والعواطف ، وكاد يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه ، فأصر على أسنانه بشدة وقال :

— يقول الناس إن الحب سحر ، والسحرة يقولون إن السحر حب .

فقال الوزير الحزين :

— بت أعتقد أن جمال رادوييس سحر ملعون .

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال :

— ألم تتل الرقية التى مكنت لهذا السحر ؟

فأحس الرجل بلوم القائد وامتقع لونه ، وقال بسرعة كأنما يدفع تهمة :

— لم تكن أول امرأة ..

— ولكنها كانت رادوييس !

— رجوت لمولاى سعادة .

— فقدمت له سحرا وأسفاه !

— نعم أيها القائد ، إني أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا .. ولكن ينبغى عمل

شيء .

فقال طاهو وكان لا يزال يحس بمرارة :

— هذا واجبك يا صاحب القداسة .

— إنى أطلب مشورتك .

— إن الإخلاص يبلغ غايته في النصيحة الصادقة .

— إن فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسألة الكهنة .

— ألا تفضي برأيك إلى جلالة الملكة ؟

— هذا سبيل أودى بنخوم حثب إلى التعرض إلى غضب جلالة الملك .

فلم يجد طاهو ما يقوله ، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت :

— ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرة أخرى ، وانخلع قلبه في صدره ، وكادت

العواطف التي يبالغ في كتمانها تنفجر ، وقال لنفسه : إن الشيخ لا يدري ماذا

يقول ، ويظن أن مولاه هو المسحور وحده .. ثم قال له :

— لماذا لا تجتمع بها أنت ؟

فقال سوفخاتب :

— لعلك أقدر منى على التفاهم معها ..

فقال طاهو ببرود :

— أخشى أن تجد على رادوبيس ، وتسيء إلى الظن فتشوه مسعاه لدى

فرعون .. كلا يا صاحب القداسة ..

وتهيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة .

ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأن أعصابه ثارت ، وزعزعت أركان نفسه

عاطفة هوجاء شديدة الاغبار ، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوى على شيء ،

تاركا وراءه سوفخاتب غارقا في لجة عميقة من الأفكار والأحزان .

الملكتان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذى تثقل رأسه الهموم .
كانت الملكة تقبع فى جناحها ، تنطوى على حزن دفين ، وألم بارح ، ويأس
محروم من الشكوى ، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير ، وتشاهد الأمور التى
تقع فى الوادى بعينين حزينتين ، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها ، أو ملكة
يتقلقل بها عرشها ، وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له
اتصال ، ما دام الملك يغرق فى هواه ، وما دامت هى تلوذ بصمت الكبرياء .
وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا ، وأن الحب أنساه
كل شيء حتى تركزت الساطرة فى يد سوفخاتب . ولم يكن يداخلها شك فى
إنخلاص الوزير للعرش ، ولكنها غضبت من استهتار الملك وذهوله ، وصدقت
عزيمتها على العمل مهما كلفها الأمر ، ولم تتردد عن غايتها ، فدعت يوما
سوفخاتب وطلبت إليه أن يرجع إليها فى الشؤون التى تحتاج إلى رأى الملك . وقد
أرضت بذلك غضبها بعض الشيء ، وأرضت معه الوزير وهى لا تدرى ، الذى
تنفس الصعداء ، وأحس بأن حملا ثقيلا رفع عن صدره الضعيف .

وعلى أثر اتصال الوزير بها ، علمت بالالتماسات التى بعثت بها الكهنة من
جميع أنحاء الوادى ، وقرأتها بصبر وجلد ، فقرأت الكلمة التى أجمع عليها رأى
الصفوة من أفذاذ المملكة ، وأحست بالخطورة المستترة خلف أسطرها المتزنة
الحازمة .. وتساءلت فى حيرة وألم ، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أن
فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط ؟ .. فالكهنة قوة عظيمة ، وهم
يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه ، وهو يستمع إليهم فى المعابد والمدارس
والجامعات ، ويطمئن إلى أخلاقهم وتعاليمهم اطمئنانه إلى مثله العليا .. فكيف

تطرد الأمور إذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون ؟ .. وقنطوا من إصلاح الأمور التى لم يروها قط تسير فى طريقها التى تسير فيه فى أى عهد من العهود المجيدة الفخور التى طواها الماضى الخالد ؟

وما من شك فى أن الأمور تتعقد تعقيدا خطيرا ، ويندفع نهر الشقاق ، فيفرق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيعة ، وبين شعبه المخلص الأمين ، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغنى عنه إخلاصه ولا حكمته شيئا ..

وأحست الملكة بأنه ينبغى عمل شيء ، وأن ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمتعاب ، فينبغى أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلص الذى يعتوره ، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله .. فما عسى أن تصنع ؟ .. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحق ، ولكنها اليوم لا يعاودها إليه أمل ، ولم تنس بعد ما وجهه إلى كبريائها من طعنة نجلاء ، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة .. وفتشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها . لكن ما غرضها ؟ .. لقد فكرت فى ذلك مليا ، ثم قالت لنفسها : « غاية ما آمل أن أفوز به ، أن يرد فرعون إلى الكهنة الأراضى التى انتزعها منهم .. » . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ .. إن الملك غضوب ذو كبرياء عنيف ، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان ، ولقد أمر بنزع الأراضى فى ساعة غضب خطير ، ولكن ما من شك فى أن أشياء غير الغضب تدعوه إلى احتفاظ بالأراضى فى حوزته ، ومن يعرف قصر بيعة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذه الأشياء ، لقد سموه بحق قصر بيعة الذهبى ، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب ، فلو سدت هذه الفوهة التى تبتلع أموال الملك ، لربما هان عليه أن يفكر فى رد أراضى المعابد إلى الكهنة . ولم تكن تطمع فى صرف الملك عن غانية بيعة ، ولا فكرت فى ذلك ، ولكنها كانت ترجو لإسرافه حدا . وتهدت عند ذلك وقالت لنفسها : الآن وضع غرضى ، فينبغى أن نجد وسيلة لإقناع الملك ، بالتحول عن الإسراف الشديد ، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأراضى إلى أصحابها ، ولكن كيف نقنع

الملك ؟.. لقد أسقطته من حسابها . ولكنها تجده وراء كل حساب .. لقد فشلت في إقناعه ، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظا ، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه ، وقد أفلت منها هذا السؤال : « من القادر على أقناع الملك ؟ » فسرت في جسدها قشعريرة أليمة ، إذ حضرها الجواب سريعا ، ولكنه كان مروعا أليما ، ولم تكن تجهله . ولكنه كان من الحقائق التى يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة ، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكم فى الملك ، المسير له ، غريمتها راقصة بيجة ، التى حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد .. هذه هى الحقيقة المؤلمة تسأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال ..

وكانت الملكة امرأة حزينة ، ولكنها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق . وكانت تتناسى أنها امرأة ، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك ، فظل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التى خطفته من بين يديها . ولكنها لم تتناس قط أنها الملكة ، ولم تغفل لحظة عن واجباتها ، وصدقت عزميتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به فى مرتقاه فوق منال الهمس والتذمر ، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب ..؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى ؟. إن أفكارنا مسوقة دائما للطواف بمن نحب ومن نكره ، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح . ولقد أحست من بادئ الأمر برغبة فى رؤية رادوبيس التى ترامت إليها أخبارها ، ولكن ما معنى هذا ؟.. أتذهب إليها لتحديثها فى شئون مصر ؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التى تعرض نفسها فى سوق الهوى ، وتخطبها باسم حبها المزعوم للملك ، أن ترده عن الإسراف وتعيده إلى واجبه ؟.. يا لها من صورة بشعة !..

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها ، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل .. فلم تعد تستطيع صبرا ، وأقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها إلى عمل شئ ما ، وإلى بذل محاولة أخرى .. وتساءلت

في حيرتها : « أأذهب حقاً إلى هذه المرأة ، وألقتها إلى واجبها ، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها .. » وأسلمها تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هوى بها إلى الهوس والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها . وما كانت تزدد إلا تصميمها ، كانت كسيل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولا . ولكنه يندفع مضطرباً مزبداً كاسراً .. فقالت في نهاية المعركة الناشئة : « سأذهب ... » .

* * *

وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك . واستقبلت الضحى في سفينة ملكية ، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة ، الأبيض الذهبي . وكانت تشملها حالة ذهول محزن ، ولم تكن ارتدت ثوباً ملكياً ، فأحست لذلك بسخط واستياء ، ورسست السفينة على سلم القصر ، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق ، فقالت له : إنها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر ، فتقدمها إلى بهو الاستقبال ، وكان الجو بارداً ، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرت كأذرع مخرطة .. وجلست في البهو تنتظر وحدها . وكانت تشعر بغربة وحيرة ، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنه يصح أن تخفض الملكة من كبريائها في سبيل واجبها الأسمى ، ولكنها أحست بالانتظار يطول وتساءلت قلقة : « هل تدعها تنتظر طويلاً كما تفعل مع الرجال » . ولحقها جزع مؤلم ، وندمت على تسرعها بالحضور إلى قصر غريمتها ..

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب ، فرفعت رأسها المثلث ، فوقعت عيناها لأول مرة على وجه رادوبيس . كانت رادوبيس بغير ريب . وقد أحست بلذعة ألم ويأس ، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهلوك . وبغيت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد .

وسلمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة ، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بضوتها الموسيقى :

— نزلت قصر ك ..

فردت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب :

— شكرا ..

فابتسمت الغانية وقالت :

— ليت ضيفتنا تؤذنا بشخصها الجليل .

وكان السؤال طبيعيا ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم تكن تتوقعه . ولم تجد بدا من إعلان نفسها ، وقالت بهدوء :

— أنا الملكة ..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها في نفسها ، فشاهدت ابتسامة تغيض ، وعينيها تلمعان دهشة ، وصدرها يمتلئ ويتصلب كالأفعى إذا هوجمت .. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو ، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريميتها ، وأحست بدمائها تلهب وتحرق عروقها جميعا ، وشعرت بالكراهية والبغضاء ، وتواجهتها كغريميتين تتحفران للقتال .. واستولت عليها حالة مريرة ملوثة بالغضب والحقد . ونسيت الملكة إلى حين كل شيء إلا أنها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها ، ونسيت رادوبيس كل شيء إلا أنها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه .. وتبادل الحديث بينهما بادی الأمر في ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد فجري مجرى عنيفا محزنا ، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريميتها ، فقالت باستياء :

— ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحين الملكة ؟ ..

فجمدت رادوبيس في مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد ، وكادت تنفجر لتنفس عن صدرها الكظيم ، ولكنها ملكت أعصابها ، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت رأسها وهي جالسة ، وقد أسندت رأسها إلى المقعد في تراخ واستهانة ، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية :

— إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيدكر لقصرى فى التاريخ ..

والتهب وجه الملكة غضبا ، فقالت بانفعال :

— لم تعدى الحقيقة ، فسيدكر قصر ك هذه المرة ذكر ا جميلا لا كما تعود أن يذكره الناس .

فنظرت إليها بسخرية تستر غيظا وحنقا ، وقالت :

— ألا سحقا للناس .. أيدكرون بالسوء قصرا يجعله مولاهم مرتعا لقلبه وهواه !!..

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد ، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنى ، وقالت :

— ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب ..

— أحقا يا مولاتى .. كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شئ ..

فقالت الملكة بلهجة مغيظة :

— هذا لأنك لم تكونى ملكة فى يوم من الأيام ..

قامت لأ صدر المرأة وتصلب ، وقالت :

— عفوا يا مولاتى ، إنى ملكة حقا .

فحدجتها بنظرة غريبة ، وقالت بسخرية :

— يا للعجب ، وعلى أى مملكة ..

فقالت بزهو كبير :

— على أوسع الممالك طرا .. قلب فرعون ..

وأحست الملكة بوهن وألم ، وخجل ، وأيقنت أنها انحدرت إلى مساجلة

الراقصة فى القتال ، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار ، وتبدت عارية فى جلد

المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها ، وتمسك بتلابيب غريمتها وتكيد لها

كيدا . ونظرت لموقفها وموقف غريمتها . وهى تجلس منها جلسة متعجرفة ، وترد

سهمها إلى نحرها ، وتتيه عليها بنحب زوجها وسلطانة ، فشعرت بغرابة وذهول

وحيرة ، وتمنت لو تكون في حلم ثقيل سخيـف .
وأما ت عواطفها جميعا ، ودفتها في أعماق نفسها ، وارتدت سريعا إلى
طبيعتها المتعالية ، وجرى في عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير
الكبرياء . فذكرت الغرض الذي جاءت من أجله ، وصدقت عزيمتها على أن
تكفر عما بدر منها . . .

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرا وباطنا ، وقالت لها :
— أيتها السيدة ، إنك لم تحسنى لقاء الملكة ، ولعلك أسأت فهم الغرض من
زيارتى فثرت وغضبت ، ولكن اعلمى علم اليقين أنى ما قصدت إلى قصر ك لشأن
يخصنى أنا ..

فسكتت رادوبيس وحدثتها بنظرة مليئة بالارتباب .
ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب . وتناست الملكة ، وقالت فى هدوء :
— لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجل ، أمور تتعلق بالعرش المجيد ،
والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه .
فقالت رادوبيس بانفعال وسخرية :

— يا للأمر الجليـلة ! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى ؟ .. ما أنا إلا امرأة يلذ
الحب أن يجعلها شغله الشاغل ..

فتهدت الملكة ، وأغضت عن لهجتها ، وقالت :
— أنت تنظرين إلى أسفل ، وأنا أنظر إلى أعلى .. لقد حسبت أنك تغارين
على مجد مولاك وسعادته ، وإذا صدق حسابى ، فينبغى أن تهديه سواء السبيل .
إنه يفنى فى قصر ك تلالا من الذهب ، ويتزع من صفوة رجاله أراضيم حتى
ضج الناس بالألم ، وجأروا بالشكوى ، وقالوا إن مولانا يخل علينا بمال يعثره
على امرأة يحبها بغير حساب . فواجبك إن كنت تغارين على مجده حقا ، بين
كالشمس فى يوم صاف .. أن تصديه عن الإسراف ، وتقنعه برد المال إلى
أصحابه ..

ولكن رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حق الفهم ، وكان
وجدانها ثائرا وحقدتها شديدا ، فقالت بقسوة :
— إن الذى يحزنك حقا هو أنك ترين الذهب يتحول مع عطف فرعون إلى
قصرى ..

فانتفض جسمها ، وسرت فيه قشعريرة ، وصاحت بها :
— يا للبشاعة ..

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء :

— لن يفرق شئ بينى وبين مولاي .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بآس شديد وجرح عميق فى
كبريائها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت واقفة وولت المرأة ظهرها ،
وسارت فى طريقها متألمة حزينة غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة
الغضب .

وصعدت رادوبيس أنفاسها مضطربة ، وأسندت رأسها الساخن إلى كفها ،
وراحت فى تفكير قلق حزين ..

قبس من نور

وتنهدت رادويس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها : « وأسفاه إني أتناسى العالم ، ولكنه يأبى أن ينساني أو أن يدعنى فى طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضى وأوشابه .. رباه .. أحقا أن الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة .. أحقا أنهم يسلقون حبها بالسنة من هب ؟. لقد انكششت فى قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا . وغاب عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط على السنة قوم أشداء ، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود ، وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وإن تنوعت الدوافع التى تسوقها إلى الكلام ، فقد ترامى إليها فى زمن مضى أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيتهم ، وقد سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب . فلا شك أن وراء العالم الهادئ الجميل الذى تعيش فيه عالما صاخبا تغلى مراجله بالأحزان والأحقاد .. وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهر طوالا لم تذق مثلها فى حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفها وحبا ، وذكرت فى غمرات حزنها الطارئ ما قال آنى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، فتساءلت فى هلع : لماذا لا تجند جنود ؟ لماذا لا يعبى معبودها جيشا عرمرما ؟..

وقضت سحابة نهارها فى مخدعها كئيبة ، ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثل بنامون ، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان . ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشاب المنهموتين .. فلبثت وحدها حتى الأصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرفل فى ثيابه الفضفاضة فتنهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعها وضمها إلى صدره

العريض كما يفعل كل مرة ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس إلى جانبها على الديوان الوثير ، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها في قلبه مشهد النيل الذى حمل سفينته منذ حين قليل : فقال لها :

— أين الصيف الجميل ؟.. أين لياليه الساهرة ، إذ تشق بنا السفينة جبهته المتجمدة الدكناء ، وإذ نسلم فى المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى . ونستمع لعزف العازفات . ونشاهد بأعين حاملة رقص الراقصات ؟
ولم تكن تستطيع أن تجاريه فى تذكره ، ولكنها لم ترض أن يحس بالعزلة فى عاطفة أو فكر ، فقالت :

— مهلا يا حبيبى ، ليس الجمال فى الصيف ولا فى الشتاء ، ولكنه فى حبنا ، وستجد الشتاء دفئا حنونا ما دام وقوده .

فضحك ضحكته العظيمة التى يضطرب لها وجهه وجسمه ، وقال :
— ما أجمل حديثك .. إنه أشهى إلى قلبى من مجد الدنيا جميعا .. ولكن ماذا تقولين فى الصيد والقنص ؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل ، ونعدو فى أعقاب الغزلان ، ونلهو حتى نشبع نفوسنا المنهومة ..
فقالت وقد غلبها الشرود :

— لتكن مشيئتك يا حبيبى ..
فحدجها بنظرة فاحصة ، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلبها يتيه بعيدا ،
فقال :

— رادوبيس .. أقسم لك بالنسر الذى ألف بين قلبينا أن فكرا يسلبنى اليوم عقلك ..

فنظرت إليه بعينين حزينتين وأعيأها القول ، فقال وقد بدا عليه الاهتمام :

— صدق حدسى فعيناك لا تكذبانى ، ولكن ماذا تمسكين عنى ؟.

فتهدت من أعماق قلبها ، وعشت يمناها بعباءته وهى لا تدري ، ثم قالت

بصوت خافت :

— إني أعجب لحياتنا ، فلشد ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش في عالم قفر غير معمور .

— نعم ما نصنع يا حبيبتى ، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب ، ولبثنا ضالين حتى هدانا الحب ، فمالك تتذمرين ؟ .
فتهدت مرة أخرى وقالت بحزن :

— ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظا لا يغمض لهم جفن ؟
وقطب جبينه ، والتمعت عيناه بنور خاطف ، وأدرك بقلبه وساوسها ، فسألها بقلق :

— ما الذى يحزنك يا رادوييس ؟ .. صارحيني بأفكارك . فحسبنا ما أضعنا فى غير حديث الحب .
فقالت :

— لست اليوم كأمس ، فقد نقل إلى بعض عبيدى الذين يمشون فى الأسواق حديث قوم غاضبين يحزن فى نفوسهم أن مولا هم حرمهم من أراضيتهم ، ويضاعف من آلامهم أن أموالهم تنفق على قصرى هذا ..

فتبدى الغضب على وجه فرعون ، ولاح له شبح خنوم حتب يطل على جنته المطمئنة ، فيكدر صفوها ، ويزعج أمتها . واشتد به الغضب فصبغ وجهه بلون النيل فى إبان فيضانه ، وقال لها بصوت متهدج :

— أهذا الذى يحزنك يا رادوييس ؟ .. الويل لأولئك المتمردين لا يمسكون عن غيهم ؛ ولكن لا تكدرى صفونا . ولا تبالي تباكيهم .. دعهم لشأنهم ، وافرغى لى ..

فأحاطت يده بكفها ، وضغطت عليها بحنو ، ونظرت إليه بعينين ضارعتين ،
وقالت :

— أنا قلقة حزينة ، ويؤلمنى أن أكون سببا لشكوى قوم منك .. وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه .. والمحـب يا مولاى شديد المخاوف .

فقال باستياء وغضب :

— كيف تخافين ، وأنت بين يدي ؟.

ف قالت بتوسل :

— مولاي .. إنهم يرمقون حبا بعين الحسد ، وينفسون على هذا القصر الحب والطمانينة والنعيم ، ولقد قلت لنفسى فى حزنى وقلقى : ما للحب وهذا الذهب الذى ينثره مولاي على ؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذى يؤلب قوما علينا . ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه ؟ .. إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملا به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم ..

— وا أسفاه يا رادوبيس ، إنك تذكرينى بحديث أكره سماعه .

ف قالت بتوسل :

— مولاي إنه غشاوة فى سماء سعادتنا ، فامحها بكلمة .

— وما الكلمة هذه ؟.

ف قالت بفرح ، وقد ظنت أنه يلين ويرضخ :

— أن ترد إليهم أراضيتهم .

فهر رأسه بعنف ، وقال بلهجة شديدة :

— أنت لا تدريين من الأمر شيئا يا رادوبيس ، لقد قلت كلمتى فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدوننى ، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها ، وأتمنى دونها الموت ، أنت لا تدريين معنى الهزيمة فى نفسى ، إنه الموت ، ولو فازوا على بنيل بغيتهم لوجدتنى رجلا غريبا حزينا أسيفا لا قدرة له على الحياة ولا الحب .

ونفذت كلماته إلى قلبها ، فشدت على يديه بقوة ، وأحست برجفة تسرى فى أوصالها . وقد هان عليها كل شيء إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحب . ونبذت رغبتها ، وأسفت على توسلاتها ، وصاحت بصوت متهدج :

— لن تذلل أبدا .. لن تذلل أبدا .

فابتسم إليها بحنو ، وقال :

— نعم لن أزل .. ولن تكوني القضاء الذى يسومنى الذل أبدا ..

فقالت وهى تلهث ، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة :

— لن تذلل .. ولن تهزم .

وأسندت رأسها إلى صدره ، واستنامت إلى خفقان قلبه . وأحست فى

غيوبتها بأنامله تعبث بخصلات شعرها وخديها ، ولكنها لم تطمئن طويلا ، فقد

أزعجها خاطر من الخواطر التى كدرت يومها ، فرفعت إليه رأسها ، ونظرت

إليه بعينين قلقتين ، فقال لها :

— مالك ..

فقالت بعد تردد :

— يقولون إنهم فئة قوية ، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم .

فابتسم قائلا :

— ولكنى الأقوى ..

فترددت هنيهة ثم قالت :

— لماذا لا تعبى جيشا قويا يأتمر بأمرك ؟

فابتسم الملك ، وسألها :

— أرى الوسوس تعاونك .

فتنهدت فى غيظ ، وقالت :

— ألم يبلغ أذننى أن الناس تهمس فيما بينها بأن فرعون يأخذ أموال الآلهة

وينفقها على راقصة ؟. همس الناس إذا تجمع صار صراخا .. إنه كالشر يندلع

لهيبا .

— يا لك من متطيرة متشائمة ..

فعادت تسأله بالحناف :

— لماذا لا تدعو الجنود ؟ .

فنظر إليها نظرة طويلة ، وقد بدا عليه التفكير ، ثم قال :

— إن الجنود لا تدعى بغير سبب .

وبدا على وجهه الغضب ، فاستدرك :

— إنهم يضللون الأفكار ، ويشعرون بغضبي عليهم . فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الدعر . وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم ..

ففكرت مليا ، ثم قالت بصوت حالم ، وكأنها تحدث نفسها :

— اخلق العلل وادع الجنود .

— إن العلل تخلق نفسها بنفسها .

فأحست يأس ، وأحنت رأسها الحزين ، وأغمضت عينيها . ولم تكن ترجو أملا ، ولكن لاح لها في الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر ، فبهتت وذهلت ، وفتحت عينيها ، فإذا الفرح يتألق فيهما . ودهش الملك ، ولكنها لم تباله ، وقالت وهي لا تملك عواطفها :

— وجدت سببا ! .

فنظر إليها متسائلا ، فاستطردت :

— قبائل المعصايو .

فأدرك قصدها ، وهز رأسه يائسا ، وتمتم قائلا :

— لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام .

ولكنها لم تياس ، وقالت :

— من يدري بما يجرى وراء الحدود ؟ إن لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا .

فلنبعث إليه برسالة سرية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة و قتال ، ويرسل في طلب النجدة ، فتسمع صوته المألوف ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب ، حتى إذا اجتمع لواءها إليك ، وصلت بها جناحك ، وأشهرتها سيفاً في يدك تعلو به كلمتك وتفرض طاعتك .

واستمع لها فرعون في ذهول ودهشة ، وقد عجب أيضا لأنها لم تخطر له
ببال . على أنه لم يكن يفكر كثيرا في تكوين جيش قوى لا تدعو إليه الحالة
الحربية ، واعتقد — وما زال يعتقد — أن تدمير الكهنة لا يمكن أن يبلغ من
الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا لقمعه . ولكنه بات يعتقد أن عدم وجود
هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الاتهامات وإعلان الشكوى ،
ووجد فكرة رادويس السهلة فرصة سعيدة ، ومال إليها بجامع قلبه . وكان إذا
مال إلى شيء تعلقه ، وانشغل به واندفع في سبيله برغبة جنونية لا يلوى على
شيء . لهذا نظر إلى عيني رادويس بفرح وابتهاج ، وصاح بصوت قوى :
— نعم الفكرة يا رادويس ! نعم الفكرة !

فقلت بفرح غريب :

— هذا ما يحدثني به قلبي .. وإنها لسهلة التحقيق سهولة تناولى هذه القبلية
من فيك الحبيب .. وما علينا إلا الكتان .
— نعم يا حبيبتى .. ألا ترين أن عقلك كقلبك كثر ثمين ؟ ، وحقا ما علينا إلا
الكتان ، واختيار رسول أمين ، فدعى لي هذا .
سألته :

— من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفرو ؟
فأجابها ببساطة :

— سأختار حاجبا من رجالى المخلصين .

وكانت لا تطمئن إلى قصره العظيم ، لغير ما سبب معقول ، ولكن بدافع من
نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة . ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها ،
وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر . وزاد من
حيرتها أنها أدركت أن افتضاح السر معناه شديد الخطر ، حتى ليكبر ذكره على
الخاطر . وهمت في لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة
كهذا ، ولكنها ذكرت بغثة الشاب الطفل ذا العينين الصافيتين الذى يعمل

بالحجرة الصيفية ، وأحست إلى ذكره بطمأنينة غريبة ، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة ، وقلبه معبد تقدم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء .. فهو رسولها .. وهو الأمين . ولم تتردد فقالت له بثقة :
— دعنى أختار الرسول بنفسى .

فاستضحك الملك وقال :

— يالك من رعديد اليوم .. لست كعهدى بك .. ومن عسى أن تختارى يا ترى ؟.

فقالت بخشوع :

— مولاي .. المحب شديد المخاوف ، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية ، له سن الشباب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة ، ويخلص لى إخلاصا لا مزيد عليه . ومزيتة الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء ، وإنه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدرى بأمرها الشديد الخطر .. فلو جهلنا الخوف لأقبحنا المهالك آمين .

فهر الملك رأسه راضيا . وكان يكره أن يقول لها لا . وظنت رادوييس أن السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت إليه بادئ الأمر ، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وأيقنت أنها ستستطيع عما قريب أن تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح .

وحنّت رأسها بالأحلام ، فراق الملك جمال شعرها ، وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فأنحلت وسال على كتفها ، فتنشقه وجمعه بين يديه ، وغمر به رأسه ووجهه فى دعابة حتى لم يبد منها شيء .

الرسول

وأشرق صباح اليوم الثانى ، وكان الجو باردا والسماء متلعة بأردية
السحب ، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برىء يعلن ظاهره عن
باطنه ، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذبول ليل نسيها وراءه بعد إدباره ..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها ، ولا يرضى عنه تطهرها يوم
تظهرت فى المعبد ، وأقسمت ليزول الماضى بشوائبه . كان الذى ينتظرها أن
تخدع بنامون ، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها . على أنها لم تتردد
قط لأنه كان ينبغى أن تسبق الزمن ، وكانت تحنو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن
تقسو فى سبيلهما قساوة مرة .. وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة
الثقة لأن التغير بينامون كان أمرا سهلا لا يكلف مكرًا ..

وسارت على أطراف أصابعها ، فوجدت الشاب يتطلع إلى صورتها ، ويترنم
مغنيا أغنية كانت تغنيها فى الأماسى الخوالى مطلعها :

إذا كان حسنك يصنع المعجزات
فلماذا لا يقدر على شفاى

وأخذت بغناؤه ، ولكنها انتهزت الفرصة ، وغنت تم أغنيته :

هل أعبت بما لا علم لى به
والأفق مستر خلف سحاب
وعسى أن تكون المدخر لقلبي

فتحول الشاب إليها فزعا مسحورا ، فتلقته بضحكة عذبة ، وقالت له :

— إن لك صوتا عذبا ، فكيف أخفيته عني طوال هذه الأيام ؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيا ، وارتجفت شفتاه ارتباكا ، وقابل تلطفها

بدهشة .

وأدركت المرأة ما يدور بخلد ، فقالت تستدرجه :

— أراك تلهو بالغناء ، وتترك العمل ..

فبدأ عليه الإنكار ، وأشار إلى صورتها المحفورة . وتمتم : « انظري » .

وكانت الصورة قد استوت وجها جميلا لا تنقصه الحياة ، فقالت بإعجاب :

— إنك لقادر يا بنامون .

فتهد الشاب ارتياحا ، وقال لها بامتنان :

— شكرا لك يا سيدتى .

فقالت تعطف الحديث إلى غايتها :

— ولكنك قسوت علىّ يا بنامون .

— أنا .. كيف يا مولاتى ؟

فقالت :

— خلقت لى نظرة جبارة ، وأنا أشتى أن أكون كالحمامة .

فلزمه الصمت ولم يبن ، ففسرت صمته على هواها ، وقالت :

— ألم أقل إنك تقسو على .. فكيف ترانى يا بنامون .. أجبارة قاسية جميلة

كهذه الصورة ؟ يا لها من صورة ! إني أعجب كيف ينطق الحجر . ولكنك

تحسب أن قلبى لا يشعر كهذا الحجر ، أليس كذلك ؟ لا تهم بالفرار فهذا هو

اعتقادك . ولكن لماذا يا بنامون ؟

ولم يدر ما يقول ، فغلبه الصمت ، وكانت توحى إليه بأفكارها ، فيصدقها

وينساق إليها ويشند ارتبأكه ، واستدركت المرأة :

— لماذا يا بنامون تحسبنى قاسية ؟. إنك تؤمن بالظواهر ، لأنك لا تقدر

بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك ، وقد قرأت وجهك كصفحة من

كتاب مفتوح . أما نحن فلنا طبيعة أخرى ، والصراحة تضيع علينا لذة الفوز ،

وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا .

وسأئل الشاب نفسه حائرا : ماذا تعنى يا ترى ، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها .. أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين ، لا تحس بالنار الملتهبة فى كيانه ، فما الذى غيرها ؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو ؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التى تحرق قلبه ؟! هل تعنى حقا ما تقول ! وهل تعنى حقا ما أفهمه ؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت :

— آه يا بنامون أنك تقسو علىّ بدورك ، وآية ذلك الصمت الذى ترد به علىّ .

فحدجها بنظرة والهة ، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيه ، وقد أيقن صدق ظنونه ، فقال بصوت متهدج :

— الدنيا لا تسعنى كلاما .

فتهدت ارتياحا أن حلت عقدة لسانه ، وقالت بصوت حالم :

— وما حاجتك إلى الكلام ؟. فلن تقول شيئا أجهله .. أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرا ، وتركنا فى جسمك أثرا من قلوبنا خالدا .. نعم ها هنا عرفت سرا رهيبا ..

وتفرست فى وجهه زمنا قصيرا ، ثم قالت :

— ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبى ؟. على حين بغتة عجيبة كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها إلى إنسان فى مكان قصى ، وأن أبعث بها مع رسول ترتاح إليه نفسى ، ويثق فيه قلبى . وكنت جالسة وحدى أستعرض أمام ناظرى أقواما من الرجال والنساء ، ومن العبيد والأحرار ، وما أحس فى كل مرة إلا بالجفاء والقلق . ثم لا أدري إلا وخيالى يتسلل إلى هذه الحجرة ، ووجدتنى فجأة أذكرك يا بنامون ، فترتاح نفسى ويطمئن قلبى ، بل أحسست بما هو أعمق من هذا ، وهكذا عرفت سر قلبى .

فغمر الفرح وجه الشاب ، وأحس بالسعادة إلى حد الذهول ، فجثا على

ركبته أمامها ، وهتف من أعماق قلبه :

— مولاتي !

فوضعت كفها على رأسه ، وقالت بخنان :

— هكذا عرفت سر قلبي ، وإني لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل

طويل .

فقال بنامون ، وكان يتيه في غمرات الدهول :

— مولاتي ، أقسم لقد شهدني الليل وأنا ذوب عذاب ، وهاك الصبح يلقيني

نسمة من سعادة معطرة . لقد أخرجتني كلمة نطقت بها من الظلمات إلى

النور ، ونقلتني من دياجير اليأس إلى سحر السعادة . لقد أحبت نفسي بعد أن

أشفيت على الفناء .. أنت سعادتي وحلمي وأملی .

وكانت تصغي إليه في صمت حزين ، وقد شعرت بأنه يصلي صلاة حارة ،

وإنه يهيم في جهالة الأحلام الساذجة المقدسة ، فوجمت وعاوردها شيء من الألم

والندم . ولكنها لم تستسلم طويلا لعواطفها التي أثارها في قلبها بهيامه فقالت في

دهاء :

— إني أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل ، بل إني أعجب

للمصادفات التي لم توفقني إلى سره إلا حين حاجتني إلى إرسالك إلى مهمة

بعيدة ، فكأنها دلتني عليك ، وحرمتني منك في لحظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة :

— سأفعل ما تريدني بروحي وقلبي .

فسأله بعد تردد :

— وإن كان ما أريد سفرا إلى بلد لا تبلغه إلا بشق الأنفس ؟!

— لن يشق عليّ منه إلا أني لا أراك كل صباح .

— فليكن غيابا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك ، وتذهب إلى

حاكم الجزيرة بكلمة مني ، فيدلك على الطريق ، ويدلك لك الصعاب .

وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطلع على ما في صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة ، فتسلمها له يدا بيد ، ثم تعود إلى .

وأحس بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالنخوة والخيلاء ، وكانت يدها على كذب منه ، فهوى بضمه عليه ولثمها بشوق ووجد ، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها .

وفي طريق العودة عاودها إحساس حزين ، حتى قالت لنفسها : أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي يختار رسوله ، من أن أعبت بقلب هذا الشاب ؟ . على أنه كان سعيدا ، أسعدته كلمة كاذبة ، بل كان في حالة يحسد عليها السعداء حقا ، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة ، حتى تيأس من ليأذها بالكذب !! .

الرسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهز في يده رسالة مطوية ، يشرق وجهه بنور السعادة ، فحدجتها بنظرة غريبة وتساءلت : ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق ، وتسير الأمور وفق أحلامها ! وبسط الملك الرسالة ، وقرأتها بعينين مبهجتين ، وكانت موجهة إلى الأمير كارفرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر . وقد صارحه فيها بمتاعبه ، وبرغبته في تعبئة جيش جرار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم ، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذى صفة رسمية ، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية ، ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها ، واجتاحت بها البلدان والقرى .

وطوتها رادوبيس مرة أخرى ، ثم قالت :

— إن الرسول على أهبة الاستعداد .

فقال الملك مبتسما :

— والرسالة جاهزة .

وبدا على وجهها التأمل والأحلام ، ثم سألت :

— ترى كيف يقابلون رسالة كارفرو ؟

فقال الملك بلهجة اليقين :

— ستهز القلوب جميعا ، وقلوب الكهنة أنفسهم ، وسوف يدعوا للحكام إلى

تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد ، فلا يلبث الجيش الذى يناط به أملنا أن يأتينا بَعْدَده وعدده .

واستخفها الفرح وسألته بلهفة :

— وهل ننتظر طويلا ؟

— أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول في الذهاب والإياب .

ففكرت هنية ، ثم عدت على أصابعها ، وقالت :

— إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل .

فضحك الملك وقال :

— هذا فال حسن يا رادوبيس ، فعيد النيل هو عيد حبنا ، وسيكون عيد

الفوز والطمانينة .

وتفاءلت هي خيرا وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملا عزيزا في ذاك اليوم

الذى تعده بحق مولدا لسعادتها وحبها . وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس

محض مصادفة ، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها .

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار ، ثم قبل رأسها وقال :

— لله هذا الرأس الثمين .. لشد ما أعجب به سوفخاتب ، ولشد ما أعجب

بالفكرة التى أبدعها ، فلم يملك نفسه أن قال لى : يا له من حل يسير لمشكل

عسير ، كأنه زهرة مونقة تخرج من ساق ملتوية ، وأغصان شديدة التعقيد .

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبح به لإنسان ، حتى ذلك الوزير المخلص

سوفخاتب ، فسألته :

— هل علم الوزير بسرنا ؟

فقال ببساطة :

— نعم : إن سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلى وقلبى ، فلا أكتمهما شيئا .

ودوى اسم طاهو فى أذنيها دويا شديدا ، فتجهم وجهها ، وبدا القلق فى

عينها ، وسألته :

— وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكا :

— لشد ما تحاذرين يا رادوبيس ، ولكن اعلمى أنى لا آمن نفسى على شيء لا

آمنهما عليه .

فقلت :

— إن حذرى يا مولاي لا يرتقى لإنسان تثق فيه هذه الثقة .

ولكنها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه الأخير ، ودوى في أذنيها
صوته الأجلش ، وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا ، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق
بنفسه شيء ؟! .

ولكن الوسوس لم تجد فرصة للعبث بقلبها ، لأنها كانت تنسى نفسها بين
يدي حبيبها .

* * *

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته ، غارقا في القلنسوة
حتى الأذنين ، وكان خداه متوردين ، وعيناه لامعتين بنور فرح سماوى ..
فسجد بين يديها في صمت وخشوع ، وقبل حاشية ثوبها في عبادة ، فداعبت
رأسه بأناملها ، وقالت له بخنو :

— لن أنسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .

فرفع إليها وجهه الجميل البريء ، وقال بصوت متهدج :

— فى سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنى الآلهة على تحمل ألم الفراق .

فقلت له مبتسمة :

— ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى فى أفراح المستقبل أحزان الماضى جميعا .

فتنهَّد قائلا :

— طوبى لمن يحمل فى قلبه حلما سعيدا يؤنس وحدته ، ويرطب جفاف

ريقه .

فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه

وقالت :

— لا أوصيك بالحذر .. أين تودعها ؟

فقال :

— على قلبى يا مولاتى تحت منطقتى .

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة ، وهى تقول :

— هالك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آتى يمهد لك السبيل ، ويدلك على

أول قافلة تقوم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدا عليه الارتباك والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ، وكفاه ترتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته وخفقاته . ثم مضى راجعا فغيبه الباب ، وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تتعلق به حياتها .

طاهو يهدى

وكان الانتظار مرا من أول عهد هابه ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة : ليت الملك لم يفش سر الرسالة لإنسان . كانت تتمنى هذا بحرقه لم يخفف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين . ولم تكن وساوسها ريبة صريحة ، ولكن ثمة قلق دفعها إلى التساؤل : ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت ؟ هل يترددون في الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشر المبيت .. رباه .. إن إفشاء سر الرسالة أمر خطير .. لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطنى . وأحست بقشعريرة تسرى في جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوسوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : إن كل شيء يسير وفق الخطة التى رسمناها ، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف ؛ وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على أنها كانت لا تكاد تطمئن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال أنها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلص من الألم ، وأنها تسمع صوته الأجش ذا النبرات المتألمة المجروحة . وقد عانت من مخاوفها الآلام ، ولكنها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذى يكتنفها .

ترى هل يحق لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظن ؟ .. إن كل الدلائل تدل على أنه نسى . ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئاً وامتنع عنه طواعية ؟ . فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح محرماً محرماً ، وما كان بوسعه إلا الإذعان

والتسليم ، ولا يعنى هذا أنه نسى أو برأ .

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقا بقلبه ؟ .. إن طاهو جبار عنيد ، وقد يستحيل الحب في قلبه حقدا موريا ، فيتحفر عند سnoch الفرصة للانتقام .. على أنها لم تنس في أحزانها أن تنصف طاهو ، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في حب مولاه ، وأنه رجل الواجب الذى لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع . كان كل شيء يدعو إلى الطمأنينة ، ولكن وساوسها لم تدعها في طمأنينتها قط ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط ، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد ؟ .. لقد لحقها الفزع ، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها . وكان خاطرا لا يخطر لها على بال قبل يوم ، أما اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة . وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلا إلى دفعه أو الإفلات منه ، وفكرت في ذلك تفكيرا مضطربا ، وقالت لنفسها : فلأدعه ولأحادثه لاستبطن ذاته ، وعسى أن أفوز بدفع شره — إن كان هناك شر يدفع — فأنقذه من نفسه ، وأنقذ مولاي من شره ، وما لبثت رغبته أن تحولت إلى عزيمة لا تقبل التردد ، فاستمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق .. ودعت من فورها شيث وأمرتها بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه . وذهبت شيث وانتظرت هى في بهو استقبالها على قلق ؛ ولم يكن يداخلها ريب في تلبية لدعوتها . وذكرت في انتظارها اضطرابها ، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود في الأيام الخوالي . فأدركت أنها منذ الساعة التى نزل فيها الحب بقلبها ، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة ، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر ، أو قلق كاذب ..

وجاء طاهو كما توقعت ، وكان مرتديا لباسه الرسمى ، فوجدت في ذلك معنى مطمئنا ، فكأنه يقول لها إنه نسى رادوييس غانية القصر الأبيض ، وأنه

يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون .

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال ، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

— أسعد الرب أيامك أيتها السيدة الجليلة .

فقالت وهي تتفرس في وجهه :

— وأيامك أيها القائد الجليل ، وإنى أشكرك على قبول دعوتي .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

— إني رهن إشارتك يا سيدتى .

رأته كما كان قويا متين الأسر ، دموى البشرية ، ولكن لم يخف عن عينيها

الفاحصتين أن ترى تغيرا طارئا لا يمكن لغير عينيها أن تراه . وجدت حول وجهه

هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها ، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من

وجه الرجل .. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث فى تلك الليلة

الغريبة التى فصلت بينهما منذ قريب من عام .. وأسفاه كان طاهو كجوا

عاصف ، فأمسى كجوا راكد .. وقالت له :

— إنى دعوتك أيها القائد لأهنتك على الثقة العظيمة التى يوليكَ إياها الملك .

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال :

— شكرا لك يا سيدتى ، هذه نعمة قديمة منت بها على الأرباب .

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

— ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتى من جميل الثناء .

وتفكر الرجل لحظة ، ثم تذكر فقال :

— لعلك يا سيدتى تعين الفكرة النيرة التى أوحى بها عقلك الراجح ؟ .

فهزت رأسها أن نعم ، فاستطرد :

— إنها فكرة رائعة ، جذيرة بذكائك اللامع .

فقلت وهى لا تبدى السرور :

— إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة ، وللوطن السلام والطمأنينة .

فقال القائد :

— هذا حق لا ريب فيه ، وهو ما جعلنا نهل لها ونكبر .

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت :

— سيأتى يوم قريب تحتاج فكرتى إلى قوتك لتحقيقها ، وتتويجها بالنجاح

والفوز .

فأحنى الرجل رأسه وقال :

— شكرا لك على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان طاهو وقورارزينا جادا ، لا كما عهدته قديما ، ولم

تكن تنتظر منه غير ذلك ، واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة . وكانت تلح عليها

رغبة قوية فى أن تفتح فى الموضوع القديم ، وأن تسأله العفو والنسيان ، ولكن

نحانها البيان ولم تدر ما تقول ، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل ، وتركت هذا

الحديث كارهة حائرة ، ورأت فى اللحظة الأخيرة أن تعلن له عن عواطفها الطيبة

بطريقة أخرى ، فمدت له يدها وقالت وهى تبسم إليه :

— أيها القائد الجليل ، إني أمد لك يد التقدير والصداقة .

فوضع الرجل يده الغليظة فى يدها الرخصة الرقيقة ، وبدا عليه التأثير فلم يجر

جوابا ، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة .

وفى طريق العودة إلى السفينة تساءل محموما : « لماذا دعتنى هذه

المرأة ؟ » . ترك العنان لعواطفه التى كبح جماحها فى حضرتها فاختل توازنه ،

وانكفأ لونه ، وارتجفت أوصاله ، ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة .

وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح كالشملى ، كأنه عائد من معركة خاسرة

أفقدته حكمته وشرفه . وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصا جنونيا ، والجو يعفره غبار ثائر خائق . وكان الدم يتدفق في عروقه ساخنا هائجا مجنونا مسموما ، ووجد إبريقا من الخمر على خوان المقصورة ، فصبه في فمه حتى أتى عليه في استهتار جنوني ، وارتمى على الديوان في حالة يأس قاتل . وفي الحقيقة لم يكن نسيها ، ولكنها كانت تكمن في سرداب خفي من نفسه ما فتى يسده بالعزاء والصبر وشعوره القوى بالواجب ، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام ، انفجر المستودع المختفي في نفسه ، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعا ، وأحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح ، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين في معركة واحدة منتهية . وأحس بدوار في رأسه المختل ، وجعل يحدث نفسه في غضب كاسر ، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه . دعته لتستوثق من إخلاصه ، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب ، وفي سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه ، يا للغرابة أن رادوبيس العابثة القاسية تجد وتحنو وتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه ، وتشفق من خيانة طاهو ، الذي كان يوما يلتصق بنعلها كالتراب ، ثم نفضته في حالة تقزز وملل ، الويل للسماء والأرض ، والويل للعالم كله . إنه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل ، وبغيظ خائق يطحن نفسه الجبارة . إنه يغضب غضبا جنونيا جارفا ، ويشعل دمه نارا موقدة ، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئا ، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء .

وما أن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعوني ، حتى غادرها مسرعا ، وسار يترنح في الحديقة لا يلتفت إلى تحيات الجنود ، متجها إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات ، وفي أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب ، وكان عائدا من جناح الملك . وقابله الوزير بابتسامة تحية ، ولكنه وقف حياله

جامدا كأنه لا يعرفه . وعجب سوفخاتب لجموده ، وقال له :

— كيف حالك أيها القائد طاهو ؟

فقال طاهو بسرعة غريبة :

— أنا .. كأسد وقع في شرك .. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة !

فبدا الإنكار على وجه سوفخاتب وقال :

— ما هذا الكلام ؟ .. أى شبه بين الأسد والسلحفاة ، أو بين الشراك

والفرن ؟ ..

فقال طاهو في ذهوله :

— أما السلحفاة فتعمر طويلا ، وتتحرك في ببطء وتنوء بحمل ثقيل ، وأما

الأسد فينكمش ويزأر ويثب في عنف فيقضى على فريسته .

فتفرس الرجل في وجهه دهشا وقال :

— أغاضب أنت ؟ . لست كعهدي بك !

— أنا غاضب .. كيف تنكرني أيها الجليل ، أنا طاهو ربيب الحرب

والقتال .. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل .. إن آلهة الموت عطشى

ولا بد يوما أن أروى غلتها .

فhez سوفخاتب رأسه متوهما أنه عرف ما هناك ، ثم قال :

— آه .. الآن فهمت أيها القائد ، إنها خمر مريوط المعتقدة .

فقال طاهو بجدة :

— كلا .. كلا .. الحق أنى شربت كأسا من الدم ثم تبين أنه دم إنسان

شرير ، فتسمم دمي ، وزاد الأمر خطورة أنى صادفت في طريقى إلى هنا رب

الخير نائما في المرج ، فأغمدت سيفى في قلبه .. هيا إلى القتال .. فالدم شراب

الجندي الباسل .

فقال سوفخاتب ذاهلا .

— إنها الحمر ولا شك ، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك في الحال .

ولكن طاهو هز رأسه استهانة وقال :

— الحذر الحذر أيها الرئيس ، إياك والدم الفاسد ، فهو السم بعينه ، لقد

انتهى صبر السلحفاة وسينقض الأسد .

قال ذلك ثم سار في طريقه لا يلوى على شيء ، تاركا سوفخاتب في ذهول

وغرابة .

فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونى ، وقصر بيعة ، ودار الحكومة ، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر ، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وكان كل يوم يدنو يدنيا من الفوز ، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل . وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل ، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت ، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة ، أو يقنع مضطرا بعرضها على الملكة ، ولكنه وجد فيها معنى جديدا خطيرا ، لم يشأ أن يتحمل تبعة إخفائه عن مولاه ، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه ، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة ، وكانت التماسا خطيرا موقعا عليه من جميع رجال الكهنوت ، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأبيس ، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها ، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى .

كان الخطاب قويا حازما ، فغضب الملك ، ومزقه إربا ، ورمى به على أرض

الحجرة وصاح :

— سوف أجيبهم بعد حين قليل .

فقال سوفخاتب :

— إنهم يلتمسون جماعة ، وكانوا يلتمسون فرادى .

فقال الملك الغاضب :

— وسأضربهم جميعا ، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل .

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته ، وأنه استقبل استقبالا شعبيا رائعا اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي ، وأن الهتافات تصاعدت باسمه ، وهتف القوم أيضا لحقوق الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم ، وجاوز هذا القدر قوم ، فصاحوا باكين : « واحسرتاه ! إن أموال آمون تنفق على راقصة » .

ووجم الرئيس أسفا وحزنا ، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضا ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته وقال أسفا :
— إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئا .

فقال سوفخاتب بحزن :

— ليس لديه يا مولاي إلا قوة الشرطة ، وهى لا تجدى فى مقاومة جموع غفيرة .

فقال الملك بغضب :

— وليس لدى إلا الانتظار على مضض ، لقد أدميت وحق الرب كبريائى ! .
وخيمت سحابة من الحزن على أبو المجيدة ، شملت قصورها الشائخة ودور الحكم فيها . وكانت الملكة نيتو قريس تقبع فى جناحها رهينة حبس ووحشة ، تعاني آلام قلبها المنفطر وكبريائها الجريحة ، وترقب الحادثات بعينين حزبتين أسيفتين . وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين ، ويقول أسفا لطاهو الصامت الكتيب : « هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد ؟ !
واحزنه » .

واستحالت سعادة الملك غضبا وغيظا ، وكان لا يذوق الراحة إلا حين يرتقى بين يدى المرأة التى أسلمها نفسه . وكانت تدرك ما به ، فكانت تداعبه وتحنو

عليه وتهمس في أذنه : « صبرا » فيتهد ويقول حانقا « نعم .. حتى أقبض على ناصية القوة » .

ولكن أشد الحرج ، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات ، واستقبل بالمظاهرات في كل مكان ، وتعالى الهتاف باسمه في البلدان . وضاق بذلك كثير من الحكام ، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون . فاجتمع حكام أمبوس ، وفرمونتس ، ولاتولس ، وطيبة ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقر رأيتهم على مقابلة الملك . وقصدوا إلى أبو وطلبوا المقابلة ، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سوفخاتب ، وتقدم حاكم طيبة بين يديه وحياء تحية العبودية والإخلاص ثم قال :

— مولاي ، الإخلاص الحق لا ينفع بأن يكون عاطفة في القلب ، ولا بد أن يقرن بإسداء النصيح والعمل الصالح والافتداء إذا حزب الأمر ، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة ، ولكننا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا ، فلا بد من قولة الحق .

فصمت فرعون هنيهة ثم قال للحاكم :

— تكلم أيها الحاكم فأني مصغ إليك .

فقال الرجل بشجاعة :

— مولاي . الكهنة غاضبون ، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم في الصباح والمساء ، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضي إلى أصحابها ..

فبد الغضب على وجه الملك وقال بحق :

— هل يصح أن يدعن فرعون لإرادة الناس ؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة :

— مولاي . إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون ، فلا
إذعان ، لكن تعطف من مولى قادر على عباده .
فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال :
— لا أرى في التراجع سوى الخنوع .
فقال الرجل :

— معاذ الرب أن أشير إلى مولاي بالخنوع ، ولكن السياسة بحر لجى ، الحاكم
كالربان يتفادى الريح العاصفة ، وينتهر الفرصة السعيدة .
ولكن الملك لم يعجبه قوله ، وهز رأسه باحتقار وعناد ، واستأذن سوفخاتب
طالباً الكلام ، وسأل حاكم طيبة قائلاً :

— هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم ؟
فقال الحاكم بثبات و يقين :

— نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثت عيوى فى الأقاليم ، فشهدوا غضب
الشعب عن كتب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .
وقال حاكم فرمونتس :

— وهذا ما فعلته فجاءتنى أنباء مؤسفة .
وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ، وانتهت بذلك
أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة .
 واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه فى جناحه الخاص ، وكان
غاضباً مهتاجاً يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :
— إن هؤلاء الحكام مخلصون أمناء ، ولكنهم ضعاف ، ولو أخذت
بنصائحهم لعرضت عرشى للهوان ..

وسرعان ما أمن طاهو على رأى مولاه وقال :

— إن التراجع هزيمة يا مولاي !

كان سوفخاتب يفكر في احتمالات أخرى فقال :

— ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات ، والحق أن قلبي لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب في آبو .

فبادر طاهو قائلاً :

— إننا نسيطر على آبو .

— لا ريب في هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه في العيد الماضي تصاعدت بضعة هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد حقق إرادته ، فينبغي أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخاً .

فقال الملك :

— إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .

ولكن لم ينفك سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره ، فقال وكان يؤمن في قلبه باقتراح الحكام :

— سيأتي الرسول في القريب ، وسيتلو رسالته على الملأ ، ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئناناً إلى التعبئة وأشد حماسة ، حتى إذا قبض مولاي على ناصية القوة ، أملى إرادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعاً برأى سوفخاتب ، وأحس بوحشة في جناحه الخاص ، فهرع إلى قصر بيعة الذي لا تلاحقه الوحشة إليه قط . وكانت رادوبيس تجهل ما دار في الاجتماع الأخير ، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه ، ولكنها لم تلق صعوبة في قراءة صفحة وجهه الحساس ، والشعور بما يضطرم في قلبه من الغضب

والسخط ، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها مشفقا من الظهور ، فقال متذمرا :

— أما علمت يا رادوبيس ؟ إن الحكام والوزراء يشيرون على برد الأراضي إلى الكهنة ، والرضاء بالهزيمة ؟

فتساءلت بانزعاج :

— ما الذى حثهم على إبداء هذه المشورة ؟

فروى الملك بما قال الحكام ، وما نصحوه به ، وكانت تزداد انزعاجا وحزنا ، وما تماكنت نفسها أن قالت :

— إن الجو يغبر ويظلم وما حمل الحكام على المكاشفة بآرائهم إلا خطر فادح .

فقال الملك بازدراء :

— إن شعبى غاضب .

— مولاي ، إن الناس كالسفينة الضالة بلا سكان ، تحملها الرياح كيفما تشاء .

فقال بوعيد مخيف :

— سأذهب ريجهم .

وعاودتها المخاوف والشكوك ، وخانها صبرها فى تلك اللحظة فقالت :

— ينبغى أن نستوصى بالحكمة ، وأن نتراجع زمنا قصيرا مختارين ، وإن يوم النصر لقريب .

فنظر لها بغرابة وقال :

— أتشيرين على بالخضوع يا رادوبيس ؟

فضمته إلى صدرها وقد آلتها لهجته ، ثم قالت وقد فاضت عيناها بدمع

سخين :

— أخرى بمن يتحفز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداما ، والنصر رهين
بالنهاية .

فتأوه الملك قائلا :

— آه يا رادوبيس .. إذا كنت تتجاهلين نفسي ، فمنذا الذى يمكن أن
يعرفها ؟ أنا من إذا نزل مرغما على إرادة إنسان ذبل كمدا كوردة سفتها الرياح .
فبدا التأثر فى عينيها السوداوين ، وقالت فى حزن عميق :
— فداؤك نفسى يا حبيبى ، لن تدبل قط وصدرى يرويك حبا صافيا .
— سأعيش منتصرا فى كل لحظة فى حياتى ، ولن أتمكن خنوم حتب من أن يقول
إنه أذلنى ساعة !

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت :

— أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانا ؟
— التسليم حيلة العاجز ، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف تتحطم على
أسنانه قوى الخائنين .

فتنهدت حزينة آسفة ولم تحاول معادوته ، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه
وكبريائه ، ومنذ تلك اللحظة وهى تتساءل جزعة متى يعود الرسول ؟ .. متى
يعود الرسول ؟ .. متى يعود الرسول ؟ ..

ما أشق الانتظار .. لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد فى
الدنيا .. كم عدت الدقائق والساعات وترقبت شروق الشمس وانتظرت
مغيبها ، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتى من الجنوب . وكم
حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها ، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل
منال : أين أنت يا بنامون ؟! حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم ، فلا

طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته ؟!
وتقضت الأيام تجر ثقلها جراً بطيئاً ، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة في
أفكارها ، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة ، فرفعت رأسها وسألتها :
— ما وراءك يا شيث ؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث :

— مولاتي ، جاء بنامون .

وغمرها الفرح ، فانتفضت واقفة كطير فزع ، وهي تصيح :
— بنامون ! .

فقالت الجارية :

— نعم يا مولاتي ، إنه ينتظر في البهو ، وطلب إلى أن أؤذنك بقدومه . كم
لوحه السفر ! .

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو ، فألفته واقفا ينتظر مقدمها وفي عينيه
شوق صارخ ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل ، فوقر في نفسه أن فرحها
به ، وله ، فغمرته سعادة إلهية وارتمى على قدميها كالعابد ، ولف ذراعيه حول
ساقها بحنان ووجد ، وهوى بغمه إلى قدميها .. وقال :

— معبودتي ، حلمت مائة مرة أني أقبل هاتين القدمين ، وهأنذا أحقق
أحلامي .

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة :

— بنامون العزيز .. بنامون .. أحقا عدت إليّ ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة ، ودس يده في صدره فأخرج حقا من العاج صغيرا
وفتحه ، وإذا ما فيه تراب .. ثم قال :

— هذا تراب مما كانت تطأ قدماك في الحديقة ، جمعته بيدي واحتفظت به في

هذا الحق ، وحملته معى فى سفرى ، وكنت أقبـله كل مساء قبل استسلامى للكرى ، ثم أحفظه على قلبى ..

وأصغت إليه على جزع وتململ ، وكان شعورها منصرفا عن حديثه ، ونقد صبرها ، فسألته برقة تدارى بها جزعها :

— ألا تحمل شيئا !

فدس يده فى صدره مرة أخرى ، وأخرج كتابا مطويا ومد لها يده به ، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد ، وأحست بتخدير فى أعصابها ونخور فى قواها ، وألقت على الرسالة نظرة طويلة ، وشدت عليها يديها ، وكادت تنسى بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرا هاما وسألته :

— ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفـرو ؟

فقال الشاب :

— بلى يا مولاتى ، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة . وإنه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية .

ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا ، لأن الفرح الذى غمر حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :

— أستودعك الرب إلى حين ، وإن حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام .

وجرت حاملة الرسالة ، وكان قلبها ينادى حبيبها ومولاها من أعماقها ، ولولا التخرج ، لطارت إليه فى قصره كما فعل النسر من قبل ، تزف إليه البشرى السعيدة ..

الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل ، واستقبلت آبو المحتفلين من أقاصى الجنوب والشمال ،
وتعالت فى جوها الأناشيد وازينت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون ،
واستقبل الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس فى طريقهم إلى القصر
الفرعونى ، لينتظموا فى الموكب الملكى العظيم الذى يغادر القصر حين
الضحى .

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى إحدى الحجرات دخل عليهم أحد
الحجاب ، وحياهم باسم الملك ، وقال بصوت جهورى :
— أيها السادة الأجلاء ، إن فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال ، فتفضلوا
بالذهاب إلى بهو الفرعونى .

وتلقى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية . لأن العادة جرت بأن
يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك ، فبدت الحيرة على
الوجوه وتساءل القوم : ترى أى أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق
للتقاليد ١٢ .

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين ، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذى الجلال
والروعة . واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن ، وجلس الحكام قبالتهم ، وكان
يتصدر المكان العرش الفرعونى ، وسط جناحين من الكراسى أعدت للأمرء
والوزراء .

وما لبثوا قليلا حتى دخل الوزراء يتقدمهم سوفخاتب ، وتبعهم بعد حين

أمراء البيت المالك ، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم .

وساد الصمت وبدا الجد والاهتمام على الوجوه ، وخلا كل إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التي دعت إلى هذا الاجتماع الهام ، حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام ، فتطلعوا إليه في انتباه شامل ، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن مجيء الملك :

— فرعون مصر نور الشمس ، وظل رع على الأرض ، صاحب الجلالة مررع الثانى ..

فهب الجميع وقفا وأحنوا الهامات ، حتى كادت تمس الأرض الجباه ، وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة ، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو ، وحامل الأختام ، وكبير حجاب الأمير كارفرو حاكم النوبة ، وجلس على العرش ، ثم قال بصوت مهيب :

— أحييكم أيها الكهنة والحكام وآذن لكم بالجلوس .

فاعتدلت القامات المنحنية فى رفق ، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة ، واتجهت الأنظار إلى صاحب العرش تواقة إلى استماع كلمته . واعتدل الملك فى جلسته ، ثم قال وهو يقلب عينيه فى وجوه القوم دون أن تستقر على أحد :

— أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام ، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى ، لقد دعوتكم لأشاوركم فى أمر خطير يتعلق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد . أيها السادة : لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه ، فرأيت أن واجبى يقضى على بأن أدعوكم دون إمهال ، للاطلاع عليها ، والمشاورة فى محتوياتها الخطيرة .

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه ، فتقدم الرجل خطوتين
فصار في حذاء العرش ، وقال له فرعون :
— « اتل عليهم الرسالة » .

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه ، وقرأ بصوت جهورى مؤثر :
— « من الأمير كارفنرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون
مصر نور الشمس المشرقة ، وظل الرب رع ، حامى النيل ، وصاحب النوبة ،
وطور سيناء ، وسيد الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية .

مولاي .. يؤسفنى أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء محزنة ، عن
حوادث غدر شائنة ، وقعت فى أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية ،
وكنت يا مولاي — اطمئنانا منى إلى المعاهدة التى عقدت بين مصر وقبائل
المعصايو ، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن —
كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة فى الصحراء إلى قواعد
الأصلية . وجاءنى اليوم ضابط من رجل الحاميات وأخبرنى بأن زعماء القبائل
شقوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم ، وانقضوا خلصة بليل على ثكنات
الحاميات ، وأعملوا فيها التقتيل الوحشى . وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس ،
قوات تفوقهم مائة مرة أو يزيد ، حتى سقطوا عن آخرهم فى ميدان
الاستبسال . واجتاحت القبائل البلاد جميعا ، واتجهت نحو الشمال إلى بلاد
النوبة ، فرأيت من الحكمة ألا أفرط فيما لدى من قوات محدودة ، وأن أوجه همى
إلى تحصين الاستحكامات والقلاع ، للتمكن من صد العدو الزاحف ، ولن
تصل مولاي رسالتى حتى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين ، وإنى
فى انتظار أمر مولاي سأظل على رأس جنودى أقاتل فى سبيل مولاي فرعون .
ووطنى مصر » .

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة ، وظل صوته يدوى فى كثير من القلوب ،
أما الحكام فقد اتقدت أعينهم ، وتطايير منها الشرر ، وسرت فى صفوفهم حركة
اضطراب عنيف ، وأما الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم ، وانقلبوا
كتماثيل جامدة فى معبد صامت .

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثير أشده ، ثم قال :

— هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، فقام واقفا وأحنى رأسه تحية ،
وقال :

— مولاي .. إنها رسالة خطيرة حقا ، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى
التعبئة .

ولاقت كلمته ارتياحا فى نفوس الحكام ، فقام حاكم أمبوس وقال :

— نعم الرأى يا مولاي ، فالجواب الأوحـد هو التعبئة السريعة ، كيف لا
ووراء الحدود الجنوبية إخوان لنا بواصل أوقعهم العدو فى ضيق .. وإنهم
لثابتون ، فلا ينبغى أن نخذلهم ، أو نبطئ عليهم ..

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته ، فقال :

— إذا اجتاحت أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شك .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، وقد ذكر رأيا قديما له طالما تمنى
تحقيقه يوما ، فقال :

— كان رأى دائما يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير ، يكفل

لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود .

واشتد الحماس فى جناح جميع القواد ، ونادى كثير منهم بالتعبئة ، وهتف
آخرون للأمير كارفرو ولحامية بلاد النوبة . واشتد التأثير ببعض الحكام ، فقالوا

(رادوبيس)

للملك :

— مولانا .. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد ، ووراءنا إخوان بواسل يتهددهم الموت . إيدن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود .

وكان فرعون ملازما الصمت لسمع ما عسى أن يقول الكهنة ، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس ، فلما أن سكت الحكام .. قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب :

— هل يأذن لى مولاي فى أن أوجه إلى رسول سمو الأمير كارفترو سؤالا .

فقال الملك بغرابة :

— لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر .

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال :

— متى غادرت بلاد النوبة ؟

فقال الرجل :

— منذ أسبوعين .

— ومتى بلغت أبو ؟

— مساء أمس .

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال :

— أيها الملك المعبود ، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة ، فبالأمس جاء هذا

الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو ، وبالأمس نفسه جاء وقد

من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدّموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون ،

ويرفعون إلى أعتابه المقدسة أى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام ، فما أشد

حاجتنا إلى من يميّط اللثام عن هذه المعميات .

فكان تصرّحا غريبا لم يتوقعه إنسان ، فأحدث دهشة كبرى وعجبا ،

فشملت الرعوس حركة عنيفة ، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة ، وتهامس الأمراء . أما سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياح ، فرآه يقبض على الصولجان بشدة ، وتشد عليه بقسوة حتى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه ، فخشي الرجل من تسلط الغضب على الملك ، فسأل الكاهن قائلاً :

— ومن أنباك بهذا يا صاحب القداسة ؟

فقال الرجل بهدوء :

— رأيتم بعيني رأسي يا سيدي الرئيس ، فقد زرت أمس معبد سوتيس ، وقدم كاهنه إليّ وفدا من السود قالوا أنهم من زعماء المعصايو ، وأنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون ، وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه .

فقال سوفخاتب :

— ألا يصح أن يكونوا من النوبة ؟

ولكن الرجل قال بيقين :

— قالوا إنهم من المعصايو ، وعلى أية حال فهذا هنا رجل — هو القائد طاهو — اشتبك مع المعصايو في حروب كثيرة ، وعرف جميع زعمائهم ، فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدسة ، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة ؟.

وكان الملك في حالة شديدة من القهر والغضب ، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن ، وأحس الوجوه تتطلع إليه في لهفة ورغبة ورجاء ، فقال لأحد الحجاب !

— اذهب إلى معبد سوتيس ، وادع زعماء السود .

وصدع الحاجب بالأمر ، ولبث الجميع ينتظرون وكأن على رؤوسهم

الطير . وكان الدهول باديا على وجوه الجميع . وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ود كل منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه . ولبت سوفخاتب قلعا مهموما دائم التفكير يجتلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة ، ومرت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلمة ، كأنما تنتزع من جلودهم ، والملك على عرشه يشاهد الحكام القلقين والكهنة المطرقين ، لا تكاد تخفى عيناه ما يعترك في نفسه من العواطف . ثم خال الجميع أنهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد ، فخلصوا من نفوسهم ، وأرهفوا السمع ، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر ، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف ، ومضت بالقرب تشتد وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق . وكانت مختلطة غير متميزة ، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل ، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هنالك ، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا ، ومال على أذن فرعون وقال :

— إن جموع الشعب تملأ الميدان ، تحيط بالعربات التي تحمل زعماء السود .

— وما هتافهم ؟

— يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين ، ومعاهدة السلام .

ثم تردد الرجل للحظة واستدرك هامسا :

— ويهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب !

واصفر وجه الملك من الغضب ، وأحس بالحقد والقهر ، وتساءل كيف

يدعو الشعب الذى يحبى زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو !!

ولبت ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا .

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء ، وفتح الباب على مصراعيه ، ودخل

انوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة ، ضخام الأجسام ، عرايا إلا من وزرة تستر

الوسط ، وعلى رءوسهم هالات من أوراق الشجر ، وقد سجدوا جميعا على الأرض ، وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش ، فقبلوا الأرض بين يدي فرعون ، ومد لهم الملك صولجانه فلثموه في خشوع ، وأذن لهم الملك بالوقوف فوققوا في تهييب ، وقال رئيسهم باللهجة المصرية :

— أيها الرب المعبود ، فرعون مصر ، وسيد الوادى . ومعبود القبائل ، جئنا إلى رحابك لنقدم لك آى الخضوع والدل والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم . فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا ، وشربنا الماء حلوا سائغا . فباركهم الملك برفع يده .

وكانت الوجوه متجهة إليه كأنما تضرع إليه أن يسألهم عما يقال عن بلادهم ، فقال الملك المقهور :

— من أى العشائر أنتم ؟

فقال الرجل :

— أيها البهاء المعبود ، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد . وصمت الملك قليلا ، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا ، وضاق بالمكان وبمن فيه ، فقال :

— إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم . وقدم صولجانه فلثموه مرة أخرى ، وكروا راجعين ، تكاد تمس الأرض جباههم .

والتهب الغضب في قلب الملك ، وأحس إحساسا باطنيا ألما بأن الكهنة الماثلين أمامه ، وجهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفية ، لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق . وفاض به الغيظ ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات :

— لدى رسالة لا يرتقى الشك إليها ، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أو لا تتبعهم ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمردون ، وأن جنودنا الآن محاصرون !!
فعاودت الحماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :

— مولاي .. لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك ، إن إخواننا ينتظرون النجدة . فلا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشات ، والحق أبلغ واضح .
فقال الملك بعنف :

— أيها الحكام ، إني أعفيكم من الاشتراك اليوم فى الاحتفال بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى . ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا الجند ، فرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم تام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام القوم من فورهم وأحنوا الحامات إجلالا .

التهاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاص ، ودعا إليه رجله المخلصين سوفخاتب وطاهو . فلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدي التأثر ، يقدران حرج الموقف حق قدره . ووجدوا الملك كما توقعا مهتاجا غاضبا ، يذرع حجرته من جانب إلى جانب ، ويهدر بوحشية ، فلما انتبه إليهما حدجهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— خيانة .. إلى أشم رائحة خيانة خبيثة في هذا الجو الخانق .

فانكفا طاهو وقال :

— مولاي . لا أنفى عن نفسى التشاؤم وسوء الظن ، ولكن لا يذهب بى الحدس إلى هذا الفرض الكبير .

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :

— لماذا جاء هذا الوفد اللعين ؟ .. بل كيف جاء اليوم ؟ .. واليوم بالذات ؟ .

فقال سوفخاتب ، وكان غارقا فى التفكير والأحزان :

— ترى هل هى مصادفة حزينة غريبة ؟

فقال الملك فى دهشة مروعة :

— مصادفة .. كلا .. كلا . هى الخيانة اللئيمة ، أكاد ألمح وجهها يستتر

بالإطراق والدهاء . كلا أيها الوزير لم يجيء القوم مصادفة لكنهم دفعوا إلى هنا

عمدا ليقولوا سلاما إذا ما قلت أنا حربا ، وهكذا وجه إلى عدوى ضربة

شديدة ، وهو مائل بين يديّ يعلن الولاء ..

فامتقع وجه طاعو ولاح في وجهه الحزن ، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق
يائسا وكأنه يحدث نفسه :

— إذا كانت خيانة فمن الخائن ؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء :

— نعم .. من الخائن .. هل هنالك معضلة لا تحل .. كلا .. أنا لا أنحون

نفسى ، ولا يخون عهدي سوفخاتب ولا طاهو ، ولا تخوننى رادوبيس ، فلم
يبق إلا هذا الرسول الشقى .. وأسفاه لقد خدعت رادوبيس .

فبرقت عينا طاهو وقال :

— سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهز الملك رأسه وقال :

— رويدك يا طاهو رويدك .. إن المجرم لا ينتظر حتى تذهب للقبض عليه ،

ولعله الآن ينعم بثمن خيانتة في مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة . كيف تمت

المكيدة ؟ لا أدري كيف ، ولكنى أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا

بالرسالة قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا ، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولى

بالرسالة ، وجاء رسولهم بالوفد .. خيانة .. نذالة ، إني أعيش وسط شعبى

كالأسير .. ألا لعنة الآلهة على الدنيا وعلى الناس .

ولاذ الرجلان بالصمت ، حزنا وإشفاقا ، وكان طاهو يختلس من مولاه

نظرات حزينة ، وأراد أن يحاول إعادة الأمل إلى ذلك الجو القائم فقال :

— ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلا :

— كيف لنا بتسديد هذه الضربة ؟!

— إن الأحكام فى طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود .

— وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء الجيش الذين علموا أنه يحشد لسحقهم؟! —

وكان سوفخاتب ينوء بهم ثقيل كان يؤمن بما يقول الملك ، ولكن أراد أن ينفس عن صدره ، فقال وكأنه يتمنى :

— عسى أن يكون ريننا وهما ، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة ، فتنقشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب .

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال :

— لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين ، كانوا بلا شك ينطوون على سر رهيب ، ولما قام رئيسهم ليتكلم ، تحدى حماس الحكام باطمئنان ، وألقى كلمته بثقة لا حد لها ، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة ، آه .. الويل للخيانة .. لن يعيش مرنرع الثاني تحت رحمة الكهنة .

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال :

— مولاي .. تحت إمرتك حرس قوى البنيان يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم ، ويجود بنفسه في سبيل مولاه عن طيب خاطر ..

فأعرض فرعون غنه ، وارتمى على مقعد وثير مستسلما لأفكار رأسه الساخن ، ترى هل يمكن أن يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحزان ؟ أم يفشل مشروعه إلى الأبد ؟. يا لها من ساعة فاصلة في حياته .. هي مفترق الطرق بين المجد والهوان ، والقوة والانهيار ، والحب والشقاء . لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضى حيلة ، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى التنازل عنها محافظة على عرشه ؟ آه .. لن يأتى هذا اليوم ، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدا : وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا . وتهد بالرغم منه حسرة ، وقال لنفسه آسفا .. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة . وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول :

— مولاي دنا موعد الحفل .

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق ، وتمتم « حقا » ثم قام واقفا وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء القصر العظيم — وقوة العجلات متراسة به في الانتظار — وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين ، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه ، ثم دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة ، ورجع لابسا جلد الثمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج . وتأهبوا جميعا للخروج ، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيا مولاه وقال :

— السيد طام رئيس شرطة آبو يستأذن في المثول بين يدي مولاه .
فأذن له الملك ومشيراه لما شاهدوه على وجهه من آي الاضطراب . وحيا الشرطي الكبير مولاه ، وقال مبادرا بعجلة واضطراب :

— مولاي ! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل !

فخفق قلب الرجلين ، وسأل الملك منزعجا :

— وما الذي حملك على هذا ؟

فقال الرجل وهو يلهث :

— قبضت في هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة إلى

شخصية نبيلة يكرمها مولاي وأخشى أن تكرر هذه الهتافات في أثناء الموكب .

فخفق قلب الملك وغلت مراجل الغضب في دمه ، وسأله بصوت متهدج :

— ماذا قالوا ؟ .

فابتلع الرجل ريقه ، وقال باضطراب وارتباك :

— قالوا لتسقط العاهرة ! لتسقط ناهبة المعابد !! .

- فاشتد الغضب بالملك ، وصاح بصوت كالرعد :
- يا للويل .. لابد أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى أو ينفجر بنيانى .
- واستطرد الرجل مذعورا :
- وقد قاوم المجرمون رجالى ، فوقعت معارك بيننا وبينهم ، وساد الاضطراب والهرج برهة ، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا .
- فسأل الملك قائلا وهو يصير على أسنانه غضبا ومقتا :
- وماذا قالوا أيضا ؟
- فأحنى الرجل رأسه ، وقال بصوت خافت :
- تجاسر المجرمون على ما هو أجل .
- فقال الملك فى صوت ذاهل :
- أنا ..؟!
- فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه ، ولم يتمالك سوفخاتب نفسه فصاح :
- كيف يمكن أن أصدق أذنى ؟
- وصاح طاهو بغضب :
- هذا جنون لا يعقل .
- وضحك فرعون ضحكة عصبية ، وقال بسخرية مريرة :
- كيف ذكرنى شعبى يا طام ؟ .. تكلم إني آمرك .
- فقال الرجل :
- قال الأوغاد .. « ملكنا يلهو » .. « نريد ملكا جادا » .
- فضحك الملك ضحكة كالأولى ، وقال متهكما :
- وأسفاه .. ما عاد مرنرع يصلح لعرش الكهنة ! .. وماذا قالوا أيضا يا طام ؟ .

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

— وهتفوا يا مولاي طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتو قريس ! .
فلاح بريق خاطف بعيني الملك ، وردد اسم نيتو قريس بين شفتيه بصوت
خافت كأنما يذكر شيئاً قديماً طال به عهد النسيان ، وتبادل المشيران نظرة
الدهشة ، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتخرج رئيس الشرطة ، فلم يرض أن
يجعل من الملكة حديثاً مريراً ، وإن سأل نفسه حيرة : ترى ما عسى أن يكون
شعور الملكة حيال هذه الهتافات .. واشتد الضيق ب صدره ، وأحس بموجة عنيفة
من الغضب والتمرد والاستهتار ، فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلاً بخشونة :
— هل حان موعد الذهاب ؟

فقال طام بذهول :

— أأن يعدل مولاي عن الذهاب ؟

فقال الملك بعنف :

— ألا تسمعنى أيها الوزير ؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع :

— بعد برهة قصيرة يا مولاي .. حسبت مولاي سيعدل عن الذهاب ؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة :

— سأذهب إلى معبد النيل خلال الجموع الساخطة ، وسرى ما يكون ..

عد يا طام إلى واجبك .

الأمل والسم

وكانت رادوبيس فى صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى الديوان الوثير تحلم ،
كان يوم ما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم .
فأى سعادة وأى فرح . كان صدرها فى ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى
معطر ، تنبت على حفافها الأزهار وتغنى فى جوها البلابل شادية نشوى .. فى
لدى الأفراح ؛ ومتى تتلقى نبأ الفوز ؟ .. حين الأصيل ، حين تبدأ الشمس
رحلتها إلى العالم الثانى ويشرع قلبها فى رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال الحبيب ،
فى الساعة الأصيل ! ساعة الأصيل هى ساعة الحبيب ، حين يقبل عليها بقوامه
الفارع وشبابه الغض ، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق ، يناجى
اسمها العذب ، يشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام ، وتفرق الحكام ليحشدوا
الجنود ، فهنيئاً لحينا . آه ما أجمل الأصيل ...

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار ينقضى ؟ .. لقد انتظرت عودة الرسول
شهرًا انطوى ثقبلاً مرهقاً ، ولكنها تخال هذه الساعات المكدودات أشد وطأة
وأكبر كلفة ، على أنه قلق يخالط طمأنينة ، وخوف يمازج سعادة .. وكأنما
أرادت أن تتناسى الانتظار لتتغفل الزمن ، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك
حتى عثرت فى شرودها بالعاشق الجاثى فى معبده .. فى الحجرة الصيفية ، بنامون
ابن بسار ، ما أرقه وأخف ظله ، كانت تساءلت مرة أخرى حيرى كيف تجزيه
على ما أدى لها من خدمة جليلة ، وقد طار على جناحي يمامة إلى أقصى الجنوب ،
وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق ... بل همست مرة فى

ارتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه ؟. ولكنه علمها بقناعته أن من الحب حبا غجيبا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالأحلام والأوهام . فيأله من شاب حالم بعيد عن الدنيا . ولو أنه طمع في قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماها ، دون أن تمد له فمها ، ولكنه لا يطمع في شيء ، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض . أو لعله لا يصدق أنها شيء يلمس ويقبل . إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الإنسان ، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة في السموات .

وتنهدت وقالت : حقا إن الحب عالم عجيب ، أما حبها فينبع متدفقا من صميم الحياة ، فالقوة التي تجذبها إلى مولاها هي قوة الحياة الكاملة الرهيبة ، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة ، ويضل في آفاق سامية ، لا يعلن عن أثر محسوس إلا في يده الماهرة ، وأحيانا في لسانه الملعثم الحار .. فيأله من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام ، ويقوى من ناحية أخرى فيبث في الصخر الأصم حياة .. فكيف تفكر في التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا ، فلتتركه في معبده آمنا ، يصور في جدران الصامته أجمل التهاويل التي تكتنف وجهها الجميل .

وعادت تهتف من أعماق صدرها : متى الأصيل ؟ سحقا لشيث لو لبثت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها ، ولكنها أبت ألا أن تذهب إلى أبو لمشاهدة عيد النيل ..

يا ما أجمل الذكريات ! ذكرت العيد الماضي ، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشباب ، ولما وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهي لا تدري ، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء ، فحسبته قلعا غاضبا أو نفثة ساحر ، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها !، ولم

يكديدا اليوم الثاني حتى زارها فرعون . ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا .

أما العام الثاني فها هي تقبع في قصرها ، والدنيا تقصف وتلهو في الخارج ، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تبق رادوييس الغانية الراقصة ، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق ، وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همها فتساءلت : ترى ماذا حدث في الاجتماع الخطير الذي قال مولاها أنه سيدعو إليه ليقراً عليه الرسالة .. هل التأم وأبى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن ؟. أواه .. متى يأتي الأصيل ..

وملت الجلسة ، فقامت تمشي ، ودلفت إلى النافذة المطلّة على الحديقة تسرح الطرف في آفاقها المنفسحة . ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب ، فالتفت متضايقة برمة ، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض ، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل ، فوجب قلبها ، وطالعتها نذير شؤم ، وسألتها في إشفاق :

— مالك يا شيث ؟

وهمت الجارية أن تتكلم ، فغلبها البكاء ، فجثت على ركبتيها أمام مولاتها ، وشبكت يديها على صدرها ، وأفحمت في البكاء بحالة عصبية شديدة ، فاستولى الانزعاج على رادوييس وصاحت بها :

— مالك يا شيث ؟.. بالله تكلمي ، ولا تتركيني فريسة الحيرة ، فإن لي آمالا أخاف عليها الوسوس .

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا ، وشهقت شهقة عنيفة ، ثم قالت بصوت باك :

— مولاتي .. مولاتي .. إنهم هائجون ثائرون !

— من الهائجون الثائرون ؟

— الناس يا مولاتى .. إنهم يصرخون فى غضب جنونى ، مزقت الأرباب ألسنتهم .

فخفق قلبها مفزوعا وقالت بصوت متهدج :

— ماذا يقولون يا شيث ؟

— آه يا مولاتى .. إنهم قوم مجانين تهذى ألسنتهم المسمومة هذيانا مخيفا .

فكاذت المرأة تجن فزعا ، وصاحت بحدة :

— لا تعذبنى يا شيث ! صارحبنى بما قالوا .. رباه .

— مولاتى إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل .. ماذا فعلت يا مولاتى حتى

تستحقى غضبهم ؟

فضمت رادوبيس يدها إلى صدرها ، وقد اتسعت عيناها ذعرا ، وقالت

بصوت متقطع :

— أنا .. أیغضب الناس علىّ أنا .. ألم يجدوا فى هذا اليوم المقدس ما يشغلهم

عنّى .. رباه .. ماذا قالوا يا شيث .. أصدقينى رحمة بى .

فقالت المرأة وهى تبكى بكاء مرا :

— تصايح المجانين يا مولاتى بأنك تنهين مال الأرباب .

فتهدت من صدر مكلوم ، وتمتمت بحزن :

— أواه .. إن قلبى ينخلع ويتوجس خيفة ، وأخوف ما أخاف أن يضيع

الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب . أما كان الأجدر بهم أن

يتغاضوا عنى إكراما لمولاهم ؟

فصكت الجارية صدرها بيدها ، وولت قائلة :

— إن مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم .

وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة ، وأحست برجفة تزلزل نفسها ،
وقالت :

— ماذا تقولين ؟.. هل تجاسروا على مس فرعون ؟
فقالت المرأة الباكية :

— نعم يا مولاتى وأسفاه .. قالوا فرعون يلهو . نريد ملكا جادا .
فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث ، وتلوى جسمها من شدة
الآلم ، وارتمت بيأس على الديوان ، وهى تقول :
— رباه .. أى هول هذا .. كيف لا تزلزل الأرض . وتندك الجبال ! كيف
لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا !
فقالت الجارية :

— إنها تزلزل يا مولاتى زلزالا شديدا . فالقوم مشتبكون فى قتال عنيف مع
الشرطة ، والدماء تسيل وتنفجر .. وكادت تطوئن الأقدام ، فقررت لا ألوى على
شئ ، وانحدرت فى قارب إلى الجزيرة ، وما كان أشد انزعاجى إذ وجدت النيل
يموج بالسفن ، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون ، وكأنهم جميعا
على ميعاد .

وغشيتها خور ، وطغت عليها موجة يأس خائق ، أغرقت آمالها الصارخة بغير
رحمة . وجعلت تساءل نفسها المحزونة : ترى ماذا حدث فى أبو ؟ وكيف
وقعت هذه الحوادث الخطيرة ، وما الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه ، وهل
يقدر للرسالة الفشل ويقضى على أملها بالموت ؟ الجو مغبر كالح ، تتطاير فيه نذر
شر مستطير ، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة ، إن الخوف القاتل يحتم عليه كقطعة من
الزمهرير ، وقد قالت بصوت كالبكاء :

— العون أيتها الأرباب .. هل يظهر مولاي لهذا الشعب الهائج ؟.

فقلت شيث تطمئننا :

— كلا يا مولاتي .. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه بالثائرين .

— رباه .. أنت لا تعرفين من هو يا شيث .. إن سيدى غضوب لا يتقهقر

أبدا ، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث . لابد أن أراه الآن .

فارتجفت الجارية رعبا وقالت :

— هذا مستحيل .. فالسفن الغاصة بالهائجين تغطى سطح الماء ، وحرس

الجزيرة متجمع على الشاطئ .

فشدت على رأسها وصاحت :

— ما بال الدنيا تضيق فى وجهى ، والأبواب تسد على ؟ إني أتردى فى بئر

ضيقة من اليأس ، آه يا حبيبى .. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك ؟ ..

فقلت شيث تخفف عنها :

— صبرا يا مولاتي ، ستنقشع هذه السحابة القائمة .

— يمزق قلبى إربا أن أشعر بأنه يتألم . آه يا سيدى وحبيبى ! ترى ماذا يقع

الآن من الحادثات فى آبو ؟!

وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة ، ودهشت

شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادويس ربيبة الحب والنعيم والترف

تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس ، وفكرت فى غيبوبة الحزن التى غشيتها فيما

آلت إليه آمالها التى كانت مشرقة منذ قليل ، وأحس قلبها ببرودة اليأس ،

وتساءلت خائفة مذعورة : هل يمكن أن يرغموا مولاهما فيفقدوه سعادته

وكبريائه أو أن يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم ؟ إن الحياة لا تطاق مع تحقيق

أى من هذه الوسوس ، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها

وسعادتها ، فإما أن تعيش رادويس التى حالفها الحب والمجد وإما أن تموت .

وفكرت في أمرها طويلا حتى أحضرت لها ذاكرة الأحران ما كانت أدرجته طوايا النسيان ، فاستولى عليها اهتمام شديد ، وقامت من فورتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها ، وقالت لشيث : إنها ستتحدث إلى بنامون في بعض الشئون . وكان الشاب منهمكا في عمله كعادته ، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحدثان . ولما أحس بها أقبل نحوها فرحا ، ولكنه سرعان ما وجم وقال :

— وحق هذا الحسن الإلهي إنك حزينة اليوم .

فقالت وهي تخفض ناظرها :

— بل تعب فقط أو كالمريضة .

— الجو شديد الحرارة ، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة ؟

فقالت باقتضاب :

— جئتك برجاء يا بنامون .

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك .

فقالت :

— أتذكر يا بنامون أنك حدثتني يوما عن السموم العجيبة التي ركبها

أبوك ؟.

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة :

— نعم أذكر ذلك بغير ريب !

— بنامون ، أريد قارورة من هذا السم العجيب ، الذي أطلق عليه أبوك

السم السعيد .

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا :

— ولم ؟

فقلت بلهجة هادئة ما استطاعت :

— لقد حدثت أحد الأطباء فأبدى اهتماما بشأني ، وطلب إلي أن أوافيه

بقارورة منه ، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه ، فوعده يا بنامون ، فهل

تعدني بدورك أن تحضرها لي في أقرب وقت ؟

فقال الشاب بسرور ، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء :

— ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل .

— كيف ؟ ألا ينبغي أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها ؟

— كلا .. لدى قارورة في مسكني بآبو .

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها ، ورمقته بنظرة دهشة ، فخفض

عينيه وقد تخضب وجهه احمرارا وقال بصوت خافت :

— أحضرتها في تلك الأيام الأليمة ، حين كدت أشفى من حبي على اليأس ،

ولولا ما أبديت بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس !

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة ؛ أما هي فهزت كتفها استهانة وقالت

وهي تهم بالمسير :

— قد ألوذ بها مما هو شر منها !!

سهم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه ، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف ، وظل الرجلان واقفين ممتقعي الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته ، فقال بتوسل :

— أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد .
ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة ، فقطب جبينه غضبا وقال :
— أأفر لدى أول هتاف ؟

فقال الوزير :

— مولاي إن القوم هائجون غاضبون ، فينبغي التروى .
— يحدثنى قلبى بأن خطتنا سائرة إلى الفشل المحتوم ، فإذا تراجعت اليوم
خسرت هيبتى إلى الأبد .

— وغضب الشعب يا مولاي ؟

— سيهدأ ويسكن إذا رآنى أشق صفوفه على عجلتى كالمسلة الشائخة ،
واقترحام الأهوال ولا التسليم والخنوع .

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد التأثير ، فسكت
سوفخاتب وهو كظيم ، وعطف ناظره إلى طاهو وكأنه يستغيث به . ولكن
القائد كان غارقا فى الهموم كما بدا من امتقاع وجهه ، وشروذ نظرتة ، وثقل
أجفانه . فشملهم صمت عميق ، ولم يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك .
وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب ، وكان متسرعا مضطربا ، فأنحنى

للملك ، وقال :

— ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي فى المثل بين يدىك .
فأذن له الملك ، وحدج رجليه بنظرة يفحص بها أثر قول الحاجب فى
نفسيهما . فوجدهما قلقين مضطربين . فعلت فمه ابتسامة ساخرة ، وهز كتفيه
العريضتين استهانة . ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب ،
وكانت ثيابه معفرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشر ، فأدى التحية ، وقال قبل
أن يؤذن له فى الكلام :

— مولاي ! إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة فى قتال عنيف ، وقد قتل
من الجانبين رجال كثيرون ، ولكن سيقترحنا القوم إذا لم تصلنا نجادات قوية من
الحرس الفرعونى .

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعا ، ونظرا إلى فرعون فوجداه مرتعش
الشفتين من الغضب ، وقد صاح بصوت أجش :
— وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد .

فاستدرك الضابط قائلا :

— وقد آذنتنا العيون يا مولاي أن الكهنة يخطبون الناس فى أطراف المدينة
زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب وهمية فى الجنوب ليحشد جيشا يذل
به الشعب ، والناس تصدقهم ويشتد بهم الغضب ، ولولا وقوف الشرطة فى
وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر المقدس .

فصاح فرعون كالرعد :

— قطع الشك باليقين ، وافتضح الحيلة اللئيمة ، وها هم أولاء يعلنون
العداوة ويبدأوننا بالهجوم !

ووقع الكلام من الآذان موقعا غريبا لا يصدق ، وبدا على الوجوه كأنها

تتساءل في دهشة وإنكار : أحقا أن هذا فرعون ؟ وهذا شعب مصر ؟ .. ولم يطلق طاهو صبرا . فقال لمولاه :

— مولاي ! هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية في دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء ، والرب أعلم كيف يكون منتهاه ، فمرني أن أقوم بواجبي .
فسأله فرعون :

— وماذا أنت فاعل يا طاهو ؟

— سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة ، وأقود فرقة العجلات لملاقاة
الناشرين ، قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر .
فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليا ، ثم قال بصوت رهيب :
— سأقودها بنفسى .

فانخلع قلب سوفخاتب في صدره ، وصاح بالرغم منه :
— مولاي !

فضرب الملك صدره بيديه بعنف ، وقال :

— ما زال هذا القصر حصنا ومعبدا منذ آلاف السنين ، ولن يصير على
عهدي هدفا رخيصة لكل متمرّد .

نخلع الملك جلد الثمر ورماه بازدراء ، وأسرع إلى مخدعه ليرتدى لباسه
الحربي . وفقد سوفخاتب اتزانته ، وتوجس خيفة وشرًا ، فالتفت إلى طاهو ،
وقال بلهجة الأمر :

— أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه ، فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ،
وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطي ، ولبت الوزير ينتظر الملك .

ولكن الحادثات لم تنتظر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة ، وما زالت

تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلّة على فناء القصر وألقى بناظره إلى الميدان ، فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى . كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلا رءوسا عارية وسلاحا لامعا . فأجس الوزير بالفرع ونظر إلى أسفل ، فرأى العبيد في حركة سريعة يثبتون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام على الجانبين الشمالى والجنوبى ، واندفعت قوات عظيمة منهم إلى ممر الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسى ، أما العجلات ، فقد ارتدت إلى الوراء ، واصطفت صفين طويلين تحت الشرفة استعدادا للانطلاق في الفناء إذا اقتحم الباب الخارجى .

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت إلى الوراء ، فرأى فرعون واقفا على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا ، على رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شررا متطايرا ، والغضب مرتسما على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول حانقا مغيظا :

— حوصرنا قبل أن نبدى حراكا !

فقال سوفخاتب :

— القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنها جنود جبابرة ، وسيرتد

الكهنة مهزومين .

وجهد الملك في مكانه ، وتراجع الوزير وراءه ، وجعلا ينظران في صمت مخزن إلى الجموع التى لا يحصيها العد ، وهى تهدر كالوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات كالرعد : « العرش لنيثوقريس » ، « ليسقط الملك العايب » . وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ،

فتستقر في المقاتل ، ورد التائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب
والسهام .

وهز فرعون رأسه ، وقال :

— مرحى ... مرحى ... أيها الشعب الكاسر الذى جاء لخلع الملك
العابث ، ما هذا الغضب ، ما هذه الثورة . لماذا تهدد بهذا السلاح ، أتريد حقاً أن
تغمده في قلبي ؟ .. مرحى .. مرحى .. إنه لمنظر حقيق بأن يخلد على جدران
المعابد .. مرحى مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة ، ويطلقون السهام كالطر ، فإذا سقط
منهم قتيل حل مكانه غيره مستهيناً بالموت ، والقواد على متون الجياد يطوفون
بالأسوار ويدرون القتال .

وإنه ليشاهد هذه المناظر الأليمة ، إذ سمع صوتاً يعرفه حق المعرفة يقول :
— مولاي .

فالتفت إلى الوراء مدهوشاً ، فرأى الذى يناديه على قيد خطوتين ، فقال
بعجب :

— نيتو قريس !

فقالت الملكة بصوت حزين :

— نعم يا مولاي ، لقد صك أذنى صراخ بشع لم يسمع من قبل في هذا
الوادي ، فجئت ساعية إليك لأعلن ولأنى ، وأشاطرك المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها ، فتقهقر سوفخاتب إلى
الخارج . وبادر الملك إلى معصمها ورفعها من ركعتها ، ونظر إليها بعينين
مرتبكتين . ولم يكن رآها من اليوم الذى جاءت فيه إلى جناحه وردها أسوأ رد ،
فاشتد به الحرج والألم ، على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه إلى ما كان

عليه ، فقال لها :

— شكرا لك أيتها الأخت ، تعالى انظري إلى شعبي ، إنه يحينى فى يوم العيد .

فخفضت عينيها ، وقالت فى حزن عميق :

— كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضبا وسخطا وازدراء ، وقال بلهجة تنطوى على

الاشمئزاز :

— بلد مجنون ، جو خائق ، قلوب ملوثة .. خيانة .. خيانة .. خيانة ..

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عيناها من الذعر ،

وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظن ؟ .. وهل يكون جزاؤها الاتهام

بعد أن طوت فؤادها على أسقامه ، وجاءت طوعا إلى من أهانها وأشقاها ؟ ..

وهاها الأمر ، فقالت :

— وأسفاه يا مولاي ، ليس فى وسعى إلا أن أشاطر ك المصير ، ولكنى

أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة ؟!

— الخائن رسول ائتمنته على رسالة ، فسلمها إلى عدوى ؟!

فقالت الملكة بلهجة استغراب :

— لا علم لى بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت يتسع لإنباى ،

وما أتمنى عليك من شىء إلا أن أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذى يهتف لى ليعلم

أنى أواليك ، وإنى أعادى من يعاديك .

— شكرا لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما علىّ إلا أن أستعد لموت

شريف .

تم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا إلى الحجرة الفاخرة ، وكان يطالع الداخل محراب منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقتين ، فاتجه الملكان إلى تمثالي والديهما ، ووقفأ أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر إلى تمثال والديه :

— ترى ما رأيكما فيّ ؟!

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعأوده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :

— لقد أورثتني ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟ لم يكند يمضي عام على توليتي حتى شارفت الدمار ، وأأسفاه لقد أذلت عرشي موطننا للنعال ، وجعلت اسمي مضغة للأفواه ، واكتسبت لنفسى اسما جديدا لم يطلق على فرعون من قبل ، هو الملك العايب .

وانحنى رأس الملك الشاب مثقلا حزينا ، ولبت ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما إلى تمثال والده ، وتمتم :

— لعلك وجدت في حياتي ما أخرجلك ، ولكنك لن تخجل من موتى أبدا !
والتفت إلى الملكة ، وقال لها :

— هل تغفرين إساءتي يا نيتو قريس ؟

وكان التأثر قد بلغ منها مبلغا عظيما ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :

— لقد نسيت همومي في هذه الساعة .

فقال بانفعال شديد :

— طالما أسأت إليك يا نيتو قريس ، لقد تطاولت على كبريائك ، وظلمتك

وجعلت حماقتى من سيرتك أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة . كيف حدث هذا ؟ .. وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذى تنصب فيه حياتى ... لقد غمرتنى الحياة وتولانى جنون عجيب ، ولا أستطيع حتى فى هذه الساعة أن أعلن ندمى ، وأأسفاه إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لى أنه لا يقدر على تلافيهما . هل رأيت أفدح من هذه المأساة التى أردتها ؟ .. ومع هذا فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية ، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الناس . بل لو بدأت حياتى من جديد لما تجنبت الوقوع مرة أخرى ، أيتها الأخت .. لقد ضاقت نفسى بكل شئ ، وما من فائدة ترجى . فالخير أن أستحث النهاية .

وبدا على وجهه العزم والاستهتار ، فسألته حائرة قلقة :

— أى نهاية يا مولاي ؟

فقال بحدة :

— لست نذلا لئىما ، وأستطيع أن أذكر واجبى من بعد طول النسيان . ما جدوى القتال ؟ .. سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد ، وسيأتى دورى حتما بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى ، ولست جباناً رعيداً يلوذ بأهداب الحياة قابضاً على خيط واه من الأمل ، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسى .

فارتاعت الملكة وقالت :

— مولاي .. أتحمل ضمير رجالك وزر التخلي عن الدفاع عنك ؟ ..

— بل لا أريد أن أضحي بهم عبثاً ، وسألقى عدوى وحيداً لنصفى حسابنا

معا .

فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فيئست من إقناعه ،

وقالت بهدوء وحزم :

— سأكون إلى جانبك .

ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها ، وقال بتوسل :

— نيتو قريس ، إن الشعب يريدك ، وحسنا أراد . فأنت جديرة بحكمه

فابقى له . إياك وأن تظهرى إلى جانبى فيقولوا إن الملك يحتفى بزوجه أمام

الشعب الغاضب .

— وكيف أتخلى عنك ؟

— افعلى هذا من أجلى ، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى إلى الأبد .

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد ، فصاحت يائسة :

— يا للساعة الرهيبة !

فقال الملك :

— هذه رغبتى نفذها إكراماً لى ، لا تقاومى وحق والدينا ، فإن كل دقيقة تمر

يسقط جنود بواصل بغير ثمن . الوداع أيتها الأخت الكريمة ، أنا ذاهب موقنا

بأنك لن تلطخينى بالعار فى ساعتى الأخيرة ، إن من يتمتع بالسلطان الكامل لا

يستطيع أن يقنع بالأسر فى قصر . فالوداع أيتها الدنيا ، الوداع أيتها اللذات

والآلام .. الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء . لقد مجت نفسى كل

شئ ، فالوداع الوداع ..

وهوى بغمه فقبل رأسها ، والتفت إلى تمثال والديه ، وانحنى لهما ، ثم

ذهب .

ووجد سوفخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية ، جامدا كتمتال أخنى عليه

القدم ؛ فلما رأى مولاه دبّت فيه الحياة وتبعه فى سكون ، وفسر خروجه على

هواه ، فقال :

— سيث ظهور مولاي روح الحماس في قلوبهم الباسلة .
فلم يجبه الملك . وهبطا الأدراج معا إلى ممر الأعمدة الطويل الذي يصل ما
بين الحديقة والفناء ، وأرسل في طلب طاهو ، وانتظر صامتا . وفي تلك اللحظة
نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية ، إلى بيعة .. وتهد من أعماق قلبه ،
لقد ودع كل شيء إلا أحب الناس إليه ، فهل تحم النهاية قبل أن يلقي نظرة على
وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة ؟ .. وأحس قلبه بحنين أليم وحزن
شديد ، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحياه ، فاندفع بقوة لا تقهر
إلى سؤاله عن طريق بيعة قائلا :

— هل النيل آمن ؟ .

فأجابه القائد قائلا ، وكان ممتقع الوجه شديد الشحوب :
— كلا يا مولاي . ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلحة ،
ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء ، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا .
ولم يكن القصر الذي يهم الملك ، لذلك أحنى رأسه ، وقد أظلمت عيناه .
سيموت قبل أن يلقي نظرة وداع على الوجه الذي باع الدنيا ومجدها من أجله .
ترى ماذا تفعل رادوبيس في هذه الساعة المفجعة .. هل بلغها ما أصاب آمالها من
الانهيار ، أم أنها ما تزال تتيه في وديان السعادة ، وتنتظر عودته بفارغ الصبر ؟ !
ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه ، فطوى آلامه في صدره ،
وقال لطاهو آمرا :

— مر جنودك أن تخلي الأسوار ، وتكف عن القتال ، وتعود إلى ثكناتها .
فاستولت الدهشة على طاهو ، ولم يصدق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج :
— ولكن الشعب يقتحم الباب توا !

ولبت طاهو واقفا لا يبدى حراكا ، فصاح الملك بصوت كالرعد دوى دويا

مخيفا في ممر الأعمدة :

— اصدع بما أمرت .

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه ، وتقدم فرعون بخطى ثابتة نحو فناء القصر ، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة ، وقد رآه الضباط والجنود ، فسلوا أسيافهم وأدوا التحية ، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له :
— عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته ، ونادى في الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها في الجناح الجنوبي من القصر . وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله ، ولا تكاد تحمله قدماه الضعيفتان ، وقد أدرك ما يريد مولاه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . ومضت الجند تخطى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب ، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوي في نظام إلى ألويتها ، ثم تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدمها ضباطها . وما لبثت أن خلت الأسوار ، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادي المنوط بها واجب الحراسة في أوقات السلام .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر وإلى يمينه سوفخاتب . وعاد طاهو لاهثا ، ووقف إلى يساره ، وقد بدا على وجهه كالشبح المخيف . وكان كلا الرجلين يرغب في التوصل إلى الملك برغبة حارة ، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة ، بدد شجاعتهما ، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك إليهما ، وقال بهدوء :

— لماذا تنتظران معي ؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب ، ولم يستطع طاهو إلا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسل وإشفاق :

— مولاي .

أما سوفخاتب فقال بهدوء غير عادى :

— إذا أمرنى مولاي بالتخلى عنه سأصعد بأمره لا محالة ، ولكنى سأزهق

نفسى فى الحال .

فتنهذ طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذى أعياه طلبه ، وتمتم قائلا :

— أحسنت أيها الرئيس .

وسكت فرعون ، ولم يقل شيئا .

وفى أثناء ذلك كانت توجه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة ، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجئ ، وتوهموا أنه ينصب لهم شراكا قاتلا ، فوجهوا كل قوتهم إلى الباب ، ولم يحمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فتزعزعت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا ، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة ، وانتشروا فى الفناء كغبار ريح الصيف . وكانوا يتدافعون بعنف ، وكأنهم يتقاتلون ، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور . وما زالوا فى تقدمهم حتى شارفوا القصر الفرعونى ، ولحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه ، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيدا لهم . وتشبثت أقدام الذين على الرعوس بالأرض ، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم ، وصاحوا فى الجموع :

— مهلا .. مهلا .

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الدهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضائهم ، ويزيغ أبصارهم ، وتوقع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنه الأسود . ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب

سوفخاتب ، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة ، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد ، فامتدت يد إلى قوسها ، ووضعت سهمها في كبده ، وسددته إلى فرعون وأطلقت ، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقر في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء ، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذى أصيب ، ومد يديه يسند الملك فالتقتا مع يدي طاهو الباردتين . وأطبق الملك شفثيه فلم يخرج منهما أنين ، ولا آهة ، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطب جبينه ، وارتسم عليه الألم ، وأحس سريعا بنحور وضعف ، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدي رجله المخلصين .

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب ، وعقد الألسنة صمت ثقیل : وهلعت الأعين ، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذى يعتمد على رجله تتحسس يده موضع السهم فى صدره فيلطحها الدم الساحن المتدفق بغزارة ، وكأنهم لا يصدقون أعينهم ، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية . ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل :

— ماذا هنالك ؟

فقال آخر بصوت خافت :

— قتل الملك !!

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية ، وتصايح بها الناس ، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياح .

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا ، فجرى الرجل إلى داخل القصر ، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد ، فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأناموه فى رفق . وانتشر الخبر داخل القصر ، فجاء طيبب الملك مسرعا ، وظهرت خلفه الملكة ، وكانت تسرع الخطا فى اضطراب باد ،

ولما وقعت عيناها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعة ، وجشت على ركبتها
إلى جانب الطبيب ، وهي تقول بصوت متهدج :
— يا للويل .. قد أصابوك يا مولاي كمشيئتك !
وشاهد القوم الملكة ، فصاح واحد منهم :
— جلالة الملكة .

وانحنت هامات الشعب الواجم كأنه في صلاة جامعة . وأخذ الملك يفيق من
أثر الصدمة الأولى ، ففتح عينيه المغمضتين ، ومضى يقلبهما فيمن حوله في هدوء .
وضعف وكان سوفخاتب يحملق في وجهه في ذهول وصمت ، وكان طاهو
جامدا ووجهه كوجوه الموتى ، وكان الطبيب يفحص الجرح ، يكشف عنه
قميص الزرد . أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم ، وقالت للطبيب :
— أليس بخير ؟ قل لي إنه بخير !

فأدرك الملك ما تقول ، وقال ببساطة :

— كلا يا نيتوقريس ، إنه سهم قاتل .

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم ، ولكن الملك قال له :

— دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب .

واشتد التأثير بسوفخاتب ، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرا

تاما :

— ادع جندك ، وانتقم لمولاك من المجرمين .

وبدت على الملك المضايقة ، فرفع يده بصعوبة ، وقال :

— لا تتحرك يا طاهو ، هل هانت عليك أوامري يا سوفخاتب في رقادي

هذا ! لا قتال بعد الآن ، قولوا للكهنة إنهم بلغوا غايتهم ، وأن مرئز الثاني على
فراش الموت ، فليرجعوا بسلام .

وسرت رعدة في جسم الملكة فمالت على أذنه ، وقالت همسا :
— مولاي ! لا أحب أن أبكى أمام قاتليك ، ولكن ليطمئن قلبك ، فو حق
أبويننا ، وحق الدم الزكى لأنتقم من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا
بعد جيل .

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته ، وغسل الطبيب
الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن ، ووضع بعض الأعشاب حول السهم ،
واستسلم الملك إلى يديه ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة ،
ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذى تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة فلاحت في
عينيه نظرات حنين ، وقال بصوت خافت بغير وعى منه إلى ما حوله :
— رادوبيس .. رادوبيس .

وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعتة ، وأحست بطعنة نجلاء تخترق
شغاف قلبها ، فرفعت رأسها وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالآ إلى شعور
الآخرين ، فأومأ إلى طاهو ، فبادر الرجل إليه . فقال له برجاء :
— رادوبيس .

فقال القائد :

— هل آتى بها يا مولاي ؟

فقال بصوته الخافت :

— كلا .. احملنى إليها ، فى قلبى بقية حياة أريد أن تنفذ فى بيعة .
ووجه طاهو نظرة إلى الملكة فى ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة وقالت
بهدهوء :

— نفذ مشيئة مولاي .

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قولها ، فقال لها :
— أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه أيضا .. إنها
رغبة ميت .
فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنت على جبينه ولثمته ، ثم أوسعت
للعبيد .

السوداع

انحدرت السفينة فى هدوء متجهة صوب جزيرة بيعة ، والهودج فى مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه ، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه .. وكانت هذه أول مرة يحيم فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولاها نائما مستسلما ، يغشى وجهه ظل الموت . وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناها الحزینتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب ، وكان يرفع جفنيه الثقيلتين ، وينظر إليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما فى تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا ، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبى .

ومال طاهو على أذن سوفخاتب ، وهمس قائلا :
— أرى أن يسبق أحدهنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة .
ولم يكن سوفخاتب فى تلك الساعة الرهبة يبالى شعور إنسان ، فقال باقتضاب :

— افعل ما بدا لك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :

— يا له من نبأ لا يدري الإنسان كيف يؤديه إليها .

فقال سوفخاتب بحدة :

— ماذا تخشى أيها القائد ؟! إن من يتلى بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابا

لحذور .

قال سوفخاتب ذلك ، وغادر المقصورة مسرعا ، وصعد درجات السلم إلى الحديقة ، واخترق الممشى مهرولا حتى انتهى إلى البركة ، فاعترضت سبيله الجارية شيث ، وقد دهشت الجارية لمراه ، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالي . وفتحت فاهما لتكلمه ، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة :

— أين سيدتك ؟.

فقلت شيث :

— مسكينة سيدتي لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا . وما زالت تدور بالحجرات ، وتطوف بالحديقة حتى ...
وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة :

— أين سيدتك ؟.

فقلت مستاءة :

— في الحجرة الصيفية يا سيدى .

وأسرع الرجل إلى الحجرة . ودخل متنحنحا ، وكانت رادوبيس جالسة على كرسي مسندة رأسها إلى يدها ، فلما أحست بالداخل التفتت إليه ، وسرعان ما عرفتة ، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزا ، وقالت باهتمام وقلق :
— الرئيس سوفخاتب .. أين مولاي ؟..

فقال الرجل الغارق في حزنه بذهول :

— سيأتى عما قليل ..

فضمت يدها إلى صدرها فرحا ، وقالت بصوت بهيج :

— لشد ما عذبتنى المخاوف على سيدى ، لقد بلغنى أنباء العصيان المحزنة ، ثم

انقطع عني كل شيء ، فتركت وحدى إلى وساوس قلبى .. متى يأتى سيدى ؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولا بين يديه فاعتورها القلق
وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه :

— ولكن لماذا بعثك إليّ ؟

فقال الوزير بجمود :

— صبرا يا سيدتي ، فلم يرسلني أحد ، والحقيقة الأسيفة أن مولاي
أصيب .

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داميا ، فحملت في وجه
الوزير الكتيب فزعة ، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرة مرتعشة ، فقال
سوفخاتب الذي أفقده الحزن شعوره :

— صبرا صبرا .. سيصل مولاي محمولا على هودجه كمشيئته . لقد أصيب
بسهم في هذا اليوم المنكود الذي غدا عيدا وأضحى مأتما مروعا .

ولم تحمل المكوث في الحجرة ، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيحة ،
ولكنها لم تكد تجاوز العتبة حتى سمرت قدماها في الأرض ، وثبتت عينيها على
الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة ، فأفسحت لهم الطريق ، وهي
تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر ، ثم تبعتهم على الأثر . وقد
وضعوا الهودج في حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجا ، وخرج في
ذيلهم سوفخاتب ، وخلا المكان لها وله .. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه ،
وشبكت أصابع يديها وشدت عليها بقسوة وبحالة عصبية عنيفة ، ونظرت إلى
عينييه الساهمتين الذابلتين ، وقد انقطعت منها الأنفاس ، وجرى بصرها الزائغ
على صدره المضطرب ، فرأت بقع الدم والسهم النافذ ، فاقشعر بدنهما بحالة ألم
جنوني ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفزع :

— أصابوك .. يا للهول !

وكان نائما في تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة في الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسمات حياة رقيقة ، ولاح في عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة . ولم تكن تراه إلا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجن ، وهى تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل ، وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا ، وقالت بتألم :

— كيف تركوه فى صدرك ؟! هل أستدعى الطبيب ؟!

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة ، وقال بصوت ضعيف :

— لا فائدة .

فلاحت فى عينيها نظرة جنونية ، وقالت بصوت العتاب :

— لا فائدة يا حبيبى .. كيف تقول هذا ؟! هل هانت عليك حياتنا !

فمد يده فى ضعف شديد حتى مست كفها الباردة ، وهمس قائلا :

— هى الحقيقة يا رادوبيس ، لقد جئت لأموت بين يديك فى المكان الذى

أحببته أكثر من أى مكان فى الدنيا .. فلا تندبى حظنا ، وامنحىنى صفاء .

— مولاي ، أتنعى إلى نفسك ؟! يا لساعة الأصيل هذه ، كنت أنتظرها يا

حبيبى بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل ، وكنت أرجو أن تجيء حاملا إلى

بشرى الفوز ، فجئت حاملا إلى هذا السهم .. كيف لى بالصفاء ؟!

فازدرد ريقه بصعوبة ، وقال بتوسل وبصوت كالأنين :

— رادوبيس تناسى هذا الألم وادنى منى ، أريد أن أنظر إلى عينيك

الصافيتين .

إنه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة

حياته ، أما هى فكانت تعاني آلاما لا قبل لإنسان بها ، وكانت تود لو تنفس عن

صدرها المضطرم بالصراخ والعويل والهذيان ، أو تلتبس الشفاء في الجنون
العنيف واصطلاء نيران الجحيم ، فكيف تصفو وتهلأ وتطالعه بالوجه الذي أحبه
وسكن إليه دون العالمين .. وكان يتابع النظر إليه برجاء ، فقال بحزن :
— ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس .

فقلت بأسى وحزن :

— هما عيناي يا مولاي ، ولكن جف ما يمدهما بالنور والحياة .
— أواه يا رادوبيس ، ألا تريدان أن تنسى آلامك هذه الساعة إكراما لي ..
أريد أن أرى وجه رادوبيس حبيبتى ، وأن أستمع إلى صوتها العذب .
ونفذ رجاءه إلى قلبها ، فكبر عليها أن تحرمه من شيء يريد في تلك الساعة
السوداء ، وقست على نفسها قسوة شديدة ، فبسطت صفحة وجهها
واغتصبت من شفيتها المرتعشتين ابتسامة وحتت عليه في سكون واطمئنان كأنما
تحنو عليه ، وهو يرقدرقاد غرام ، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا ،
وانفرجت شفاته الباهتتان عن ابتسامة .

ولو أنها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا ، ولكنها نزلت على
إرادته العزيزة ، وملأت عينيها من وجهه ، وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب
عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد ، وأنها لن تراه في هذه الدنيا مهما تأملت أو
تأوهت أو سكبت الدمع الحزين ، وأن صورته وحياته ووجهه ستغدو ذكريات
ماض غريب ، هيئات أن يصدق قلبها المكلوم أنه كان يوما حاضرها واستقبالها .
كل هذا لأن سهما مجنونا استقر في هذا الموضع من صدره . كيف يستطيع هذا
السهم الحقيق أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها ! .. وتهدت المرأة
تهلأ حارا صعد فتات قلبها ، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة في صدره ،
المضطربة في أنفاسه ، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه ، وماتت حواسه ،

وأظلمت عيناه ، ولم يبق منه إلا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا ، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس . وتجلى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث ، وأمسك يدها التي امتدت إليه في فرع لا يوصف ، وصاح بقوة :

— رادوبيس اسندى رأسى .. اسندى رأسى .

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه ، ولكنه شهق شهقة قوية ، وأسقطت يده إلى جانبه ، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت . وأعادت رأسه إلى وضعه الأول بسرعة ، وصرخت صرخة فرع شديدة عالية ، ولكنها كانت قصيرة ، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه ، وتصلب لسانها ، والتحم فكها بشدة ، وحملت في وجه الذى كان إنسانا بعينين جامدتين ، ثم لم تبد حراكا .

وأذاعت صرختها الخبر الأليم ، فهرع الرجال الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا أمام الهودج ، ألقى طاهو هلى وجه الملك نظرة ذاهلة ، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة ، وتقدم سوفخاتب من الجثة ، وانحنى في إجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع جرى على خديه وتساقط على الأرض ، وقال بصوت متهلج مزقت نبراته الباكية الصمت المخيم :

— سيدى ومولاى ، وابن سيدى ومولاى ، نستودعك الآلهة العلية التى اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية . وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفانية ، ولكنها إرادة الرب التى لا ترد . فالوداع يا مولاى الكريم .

ومد سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء ، وسجى الجثة فى أناة ، وانحنى مرة أخرى ، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين .

وظلت رادوبيس جاثية ، في غفوة من الدهول لا تفيق ولا تتحول عيناها عن الجثة ، وقد سرى في جسمها جهود غريب كالموت ، فلم تبد حراكا ، ولا بكى ، ولا صرخت ، وظل الرجال في وقفهم منكسى الرؤوس .. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج ، وقال :

— وصيفة الملكة .

والتفت الرجال إلى الباب ، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها الحزن الشديد ، فأنحنوا لها تحية ، فردت التحية بإيماءة من رأسها ، وألقت نظرة على الجثة المسجاة ، ثم ردت ناظرها إلى سوفخاتب ، فقال الرجل بصوت حزين :

— انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة .

فصمت المرأة برهة كالذاهلة ، ثم قالت :

— ينبغي إذا أن تحمل الجثة الكريمة إلى القصر الفرعونى ، هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير .

واتجهت الوصيفة نحو الباب ، وأومأت إلى العبيد ، فهرعوا إليها مسرعين ، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج . وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه ، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحس بشيء مما يدور حولها ، وتساءلت بصوت مبحوح غريب :

— إلى أين .. إلى أين ؟.

وارتمت على الهودج ، فتقدم منها سوفخاتب وقال :

— إن القصر يريد أن يؤدي واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالت المرأة الذاهلة :

— لا تأخذوه منى .. انتظروا .. سأموت على صدره .

وكانت الوصيفة تتعالى بناظرها عن رادوبيس ، فلما سمعت قولها قالت

بخشونة :

— إن صدر الملك لم يخلق لكى يكون لحدا لإنسان .

وانحنى سوفخاتب على المرأة ، وقبض على معصمها برقة ورفعها بهدوء ،
وحمل العبيد الهودج ، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه ، وأدارت رأسها
بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين ،
وصاحت بصوت متقطع كالخشرجة :

— لماذا تأخذونه .. هذا قصره .. وهذه حجرته .. كيف تسوموننى القهر
أمامه .. إن مولاي لا يرضى عنم يسىء إلتى .. أيها القساة .. أيها القساة .
ولم تبالها الوصيفة ، فشقت طريقها إلى الحديقة ، وتبعها العبيد يحملون
الهودج . وغادر الرجال الحجرة فى خشوع وصمت . وكادت المرأة تجن .
وجمدت فى مكانها لحظة قصيرة ، وهمت باندفاع وراءهم ، ولكن يدا غليظة
أمسكت بذراعها ، فحاولت التخلص منها ، ولكن ضاعته محاولتها هباء .
فالتفتت إلى الورااء بعنف وغيظ ، فوجدت نفسها وجها لوجه أمام طاهو ..

نهاية طاهو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنها لا تعرفه ، وحاولت أن تخلص ذراعها ،
ولكنه لم يمكنها من غايتها ، فقالت له بعنف :
— دعنى أذهب ..

فhez رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنه يقول لها : كلا كلا .. وكان وجهه رهيبا
مخيفا ونظرة عينيه جنونية ، وتمتم قائلا :

— إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقهم إليه .

— دعنى أذهب لقد خطفوا سيدى .

فأربد وجهه ، وقال لها بلهجة عنيفة كأنه يلقي أمرا عسكريا :

— لا تقاومى رغبة الملكة الحاكمة .

فسكت عنها الغضب فى خوف وكفت عن المقاومة . واستسلمت
استسلاما غريبا ، وقطبت جبينها ، ثم هزت رأسها فى حيرة كأنها تحاول أن
تستجمع قوى إدراكها المشتت الذاهل ، وحدجته بنظرة غرابة وإنكار وقالت :
— ألا ترى أنهم قتلوا مولاي .. قتلوا الملك !

وكانت عبارة « قتلوا الملك » تقع من أذنيه موقعا غريبا مروعا فسكن هياجه ،

وقال :

— نعم يا رادوييس ، قتلوا الملك ، وما كنت أحسب قبل اليوم أن سهما

يمكن أن يقضى على حياة فرعون .

فقالت ببساطة البله :

— فكيف تدعهم يخطفونه منى بعد ذلك ؟! —

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة ، وقال :

— أتريدون أن تتبعى أثرهم ؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس ، إنك تعمين عن العواقب ، فقد أذهلك الحزن ، اصحى أيتها الفاتنة ، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان ، وانتزعت زوجها من بين يديها ، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء .. إنها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبلة بالسلاسل ، ثم تدفع بك إلى أيدي جلادين لا يعرفون الرحمة يخلقون شعرك الحريرى ، ويسملون عينيك السوداوين ، ويجدعون أنفك الدقيق ، ويصلمون أذنيك الرقيقتين ، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوهة يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشثومة التى أتلقت الملك على نفسه ، ثم أتلفته على شعبه .

وكان طاهو يتكلم بلهجة تشف عن غل وعيناه تبرقان بنور مخيف ؛ ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها ، وسهمت إلى شئ غير منظور فى هدوء غريب ، ثم هزت منكبيها فى استهانة وبساطة . فاحتدم فى قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها ، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشده عليها ، وشعر برغبة فى أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطمه تحطيمًا ، ويمتدح ناظره بتشوّهه ، وتفجر الدم من مسامه ومنافذه ، ولبت دقيقة يتفرس فى وجهها الهادئ الذاهل ، ويجاور رغبته الشيطانية ، ولكنها رفعت عينيها إليه دون أن يلوح فيهما معنى من معانى الحياة ، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسا بجريمة ، فتراخت أصابعه ، وتنهد تنهدا عميقا ثقيلًا ، ثم قال :

— أراك لا تكثرين لشئ .

وكانت لا تلقى إلى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحدث نفسها :

— كان ينبغي أن تتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

— كلا .. كلا .. ما عاد كلانا يصلح للعنينا .. ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد .

فقالت ببساطة وهدوء :

— أخذته منى .. أخذته منى :

— فعلم أنها تعنى الملكة . وهز منكبيه قائلا :

— لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فحدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

— يا أحمق يا جاهل ألا تعلم .. لقد قتلت الخائنة لتسترده .

— من الخائنة .

— الملكة ، هى التى أفشت سرنا وأثارت الشعب . هى التى قتلت مولاي .

وكان ينصت إليها فى صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة ، فلما

انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

— أخطأت يا رادوبيس ، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة .

وحملق فى وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار ، ثم قال

بصوت رهيب :

— إن كان يهملك أن تعرفى الخائن ، فها هو ذا يقف أمامك .. أنا الخائن يا

رادوبيس .. أنا ..

ولم يهملها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة . ولكنها هزت رأسها

هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء . فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفها بغلظة ، وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :
— اصحى ، ألا تسمعين ما أقول .. أنا الخائن .. طاهو الخائن .. أنا علة الكوارث جميعا ..

وارتعد جسمها بعنف ، وانتفضت انتفاضا شديدا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات ، وهى تنظر إلى وجهه الفزع بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه ، وقال بهدوء وبلهجة حزينة :

— إني أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ، لأنى أشعر شعورا صادقا أنى لست من أهل الدنيا . لقد انقطع ما بينى وبين العالم جميعا ، ولا شك فيما أحدثه اعترافى لك من الفزع ، ولكنها الحقيقة يا رادوييس ، لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى الألم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها إلى الأبد .
وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استطرد قائلا :

— وانطويت على الألم ، واستوصيت بالصبر والتجلى ، واعتزمت صادقا أن أؤدى واجبى إلى النهاية ، حتى كان ذلك اليوم الذى دعوتنى فيه إلى قصرِكَ لتستوثقى من إخلاصى . فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دمايى ، فهذيت هذيانا غريبا ، واستاقنى الجنون إلى عدو متربص ، فأفضيت إليه بسرنا ، وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من وراء الظهر .

واهتاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر إلى وجهها الفزع بقسوة ، فعاوده الغضب والحنق ، وصاح :

— أيتها المرأة الهلوك المدمرة . لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه . لقد عذب قلوب بريئة ، وخرب قصرا عامرا ، وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا

أميناً ، ولوث قلباً شريفاً .. إنه لشؤم ولعنة ..
وسكت طاهو ، وما زال الغضب يغلي في شرايينه ، ورآها كصورة للعذاب
والخوف ، فأحس ارتياحاً ولذة ، وتمتم قائلاً :
— ذوق العذاب والهوان ، وانظري الموت فما ينبغي لأحدنا أن يحيا ، وقد
مت منذ زمن بعيد ، ولم يبق لي من طاهو إلا ثيابه المزركشة المجيدة ، أما طاهو
الذي اشترك في غزوة النوبة ، وأبلى بلاءً حسناً استحق به ثناء بيبي الثاني ، طاهو
قائد حرس مرزق الثاني ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له ..
وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله . وبدأ على وجهه الضيق والجزع
الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ، ولا رؤية رادوييس التي استحوطت
تمثالاً جامداً . فنفخ في الهواء بقوة وسخط واشمئزاز ، وقال :
— ينبغي أن ينتهي كل شيء ، ولكنني لن أحرم نفسي من العقاب الصارم ،
سأذهب إلى القصر ، وأدعو كل من يحسن بي الظن ، ثم أعلن جريمتي للملأ ،
وأمزق الستار عن الخائن الذي طعن مولاه وهو يساره ، وأنزع النياشين التي
تحلى صدرى الآثم ، وأرمي بسيفي ، ثم أطفئ قلبي بهذا الخنجر .. فالوداع يا
رادوييس ، والوداع أيتها الحياة التي تستأديننا فوق ما تستحق ..
نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب ...

النهاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذى يحمل بنامون بن بسار إلى سلم الحديقة . وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معفر الثياب ، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس . وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى فى طريق العودة ما هون عليه ما صادفه فى الذهاب ، وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير فى ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض ، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب ، وانتهى به المسير إلى الحجرة ، فاجتاز عتبتها ، وهو يظن أنها خالية . ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه . ورأى رادوييس جالسة فى استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة ، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب فتردد هنيهة ، وأحست شيث بمقدمه ، والتفتت إليه رادوييس ، ثم قامت الجارية وانحنى له تحية وغادرت الحجرة ، وتقدم الشاب من المرأة ، وقد لفه الفرح ، فلما أن تبين وجهها عن كسب ركبت حركة نفسه ، وأصابه الوجوم والغم ، ولم يشك فى أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته ، وأن أنباء الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل ، فألبسته هذا الرداء الغليظ من الكدر . وركع بين يديها ، ثم مال على حاشية ثوبها فقبلها بحنان ، ونظر إليها بعينه الصافيتين نظرة إشفاق كأنه يقول لها : « فداؤك نفسى » ، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح ، فخفق قلبه خفقة السعادة ، وتخضب وجهه بالاحمرار ، وقالت له رادوييس بصوت ضعيف :

— غبت طويلا يا بنامون .

فقال الشاب :

— لقد شققت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين : إن أبو اليوم تغلى وتفور وتنثر الشظايا المحرقة ، فتملاً الجو حمماً ..
ثم دس الشاب يده فى جيبيه وأبرز لها قارورة صغيرة ، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها ، وأحست ببرودتها تسرى فى جسمها وتستقر فى قلبها . وسمعتة يقول لها :

— أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحتمل .

فقالت له :

— إن الأحزان تنتقل بالعدوى :

— ولكن رفقا بنفسك ، فما ينبغى لك أن تستسلمى كل الاستسلام إلى الحزن .. ليتك يا مولاتى تهاجرين إلى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه فى اهتمام خادع ، وتنظر إليه بغرابة ، نظرتها إلى آخر حى من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقاً لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كثب .. وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها فلعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع فقال بحماس :

— أمبوس يا مولاتى بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها إلا سماء صافية ، وطيراً لاهياً ، وبطاً سابحاً ، وأخضر ناضراً .. وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى أثارها فى نفسك الرقيقة أبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة ،
وأحست بشوق إلى النهاية . فبحثت عيناها الموضوع الذى شغله الهودج منذ
حين ، وصرخ قلبها أن ها هنا ينبغى أن تختتم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من
بنامون ، فقالت له :

— إن ما تعرضه علىّ جميل يا بنامون ، فدعنى أفكر وحدى رويدا ..
فأضاء وجه الشاب بالفرح والأمل ، وسألها :
— هل يطول انتظارى ؟
فقالت :

— لن يطول انتظارك يا بنامون .
فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة .
ودخلت شيث على الأثر ، وكانت رادوبيس تهم بترك مجلسها ، فلما رأت
الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلص منها :
— إلى بإبريق من الجمعة .

فذهبت الجارية إلى القصر ، وكان بنامون قد اتجه إلى البركة واطمأن إلى
مقعد على حافتها ، وكان فى تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة ، ويدنى إليه
الأمل غايته فى أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيدا عن الشقاء المخيم على آبو
فتخلص له ، ويسكن إليها ، ودعا الآلهة أن تهبط إليها فى وحدتها وتلهمها الرأى
السديد والحل السعيد ..

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة ، ولما أتم دورته رأى
شيث تحمل إبريقا ، وتتجه بسرعة إلى الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب ،
وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى ، ولكنه لم يكذ يفعل حتى سمع صرخة مدوية
آتية من داخل الحجرة فانتفض واقفا ، وقد انخلع قلبه فى صدره ، واندفع جريا

إلى مصدرها ، فرأى فى وسط الحجرة رادوبيس ملقاة على الأرض ، والجارية تجثو على ركبتها إلى جانبها وتنكب عليها تناديا ، وتجس خديها وكفيها .. فهرع إليها بساقين مرتجتين ، وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفرع ، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكف رادوبيس بين كفيه ، فشعر ببرودتها ، وكانت كالنائمة ، إلا أن وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة ، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها ، وانسابت ضفائر منه على البساط ، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه ، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

— ماذا بها يا شيث .. لماذا لا تجيب ؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

— لا أدري يا سيدى ، فلقد وجدتها عند دخولى الحجرة كما تراها الآن ، فناديتها فلم تجب ، وأسرعت إليها أهزها فلم تنتبه ، ولم تبد عليها اليقظة ، أو اه يا مولاتى .. مالك ما الذى اعتورك فحولك إلى ما أرى ؟.

ولم ينبس بنامون بكلمة ، وجعل يطيل النظر إلى المرأة الملقاة فى سكون رهيب ، وإن عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة ، فشقق شهقة عنيفة ، والتقطها بأصابعه المرتعدة ، فلم يجد بها إلا آثارا لاصقة بباطنها ، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبين له الحق ، وسرت فى جسمه النحيل رجفة مزقت جوارحه ، فأن أنينا موجعا لفت إليه الجارية ، وقال بصوت فرع :

— يا للهول .. يا للرعب !

فصوبت إليه الجارية عينيها ، وسأله بلهفة وذعر :

— ماذا يهولك ويرعبك ؟ .. تكلم فإنى أكاد أجن من الحيرة !!

ولكنه لم يأبه لها ، وقال يحادث رادوبيس ، وكأنها تسمعه وتبصره :

— لماذا انتحرت ... لماذا انتحرت يا مولاتي ؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيدها ، وقالت :

— ماذا تقول ، كيف علمت أنها انتحرت يا هذا ؟

فرمى القارورة بعنف ، فاصطدمت بالحائط وتحطمت ، ثم قال بذهول

وحيرة :

— لماذا أزهقت نفسك بهذا السم ؟.. ألم تعديني بأن تفكرى جديا فى

اصطحابى إلى أمبوس بعيدا عن أحزان الجنوب .. أكنت تخدعيني ريثما تزهقين

روحك ؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة ، وقالت بدهشة :

— من أين لمولاتى بالسم ؟.

فhez منكبيه يأسا ، وقال :

— أتيت لها به بنفسى .

فتولاها الغيظ ، وصاحت به :

— كيف تأتى به يا شقى ؟!

— لم أكن أدري أنها تريد لتزهق به نفسها ، لقد خدعتنى كما فعلت بى الآن .

فتحولت عنه يائسة ، وأفحمت فى البكاء ، وانكبت على قدمى مولاتها

تقبلهما وتغسلهما بدموعها ، وغشى الشاب ذهول ، فتفجرت عيناه ، وثبتتا

على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبدية ، وكان يعجب فى ذهوله كيف

يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذى لم تشرق الشمس على مثله من قبل ، وكيف

تسكن الحيوية الفائضة الملتهبة ، وتكتسى بهذا الإهاب الشاحب الذابل الذى تهم

به عوامل الخراب ؟ تمنى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة ،

فأبدت عن تنهيا الرقيق ، وأشرقت بوجهها ذى البهاء ابتسامة السعادة ،
وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفتون ، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا ..
وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج ، فنهرا قائلا :
— أمسكى عن هذا ؟

وأشار إلى قلبه ، ثم استدرك :
— هنا حزن جليل ، أجل من البكاء والنحيب .
وبقى فى نفس الجارية أمل ضعيف يخفق ، فنظرت إلى الشاب خلل
دموعها ، وقالت بتوسل :
— ألا يوجد رجاء يا سيدى ؟. عسى أن يكون ما بها غيبوبة شديدة ؟!
ولكنه قال بصوته الحزين :

— ما من رجاء ولا أمل ، ماتت رادوبيس ، ومات الحب ، وتبددت
الأوهام .. كم عبثت بى الأحلام والأوهام .. أما الآن فقد انتهى كل شىء ،
وأيقظنى من غفوتى الموت الرهيب ..
وانقصف آخر شعاع للشمس ، وانغمس وجهه القانى فى عين حمئة ،
فرحفت الظلمة تغشى الكون فى ثوب حداد . ولم تنس شيث فى حزنها واجبها
نحو جثة مولاتها ، وأدركت أنها لن تستطيع أن توفىها حقها من الإجلال والصون
فى بيعة المحاطة بأعدائها والمتربصين للانتقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشاب
الحزين الذى تحترق نفسه على كذب منها ، وطلبت إليه أن يحملا الجثة إلى بلدة
أمبوس ، وهنالك يدفعان بها إلى أيدي المخططين ، ويودعانها مقبرة أسرة بسار ،
ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه ، فنادت شيث بعض الجوارى ، وأتين
بهودج ، ووضعن الجثة عليه وسجينها .. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة
الخضراء التى انحدرت به نحو الشمال .

وجلس الشاب عند رأس الجثة على مقربة من شيث ، وقد شمل المقصورة
سكون عميق .. فى تلك الليلة الحزينة ، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة
صوب الشمال ، تاه بنامون فى وديان قصية من الأحلام ، ومرت حياته أمام
ناظريه فى صور متعاقبة ، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء ، وما
ظن يوما أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير . ثم تنهد من أعماق قلبه
المكلوم ، وثبت عينيه على الجثة المسجاة التى ارتطمت عليها آماله وأحلامه ،
فتحطمت وتناثرت ، كأوهام بددتها اليقظة .

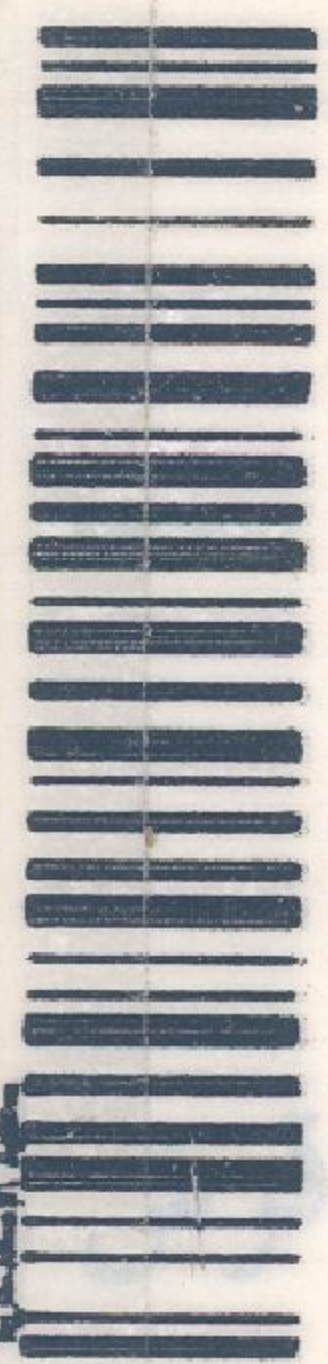
رقم الإيداع ٢٠٣٠

الترقيم الدولى ٣ — ٢١٣ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحة

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه

الشمس



0603671

tx.
736
48ra

3